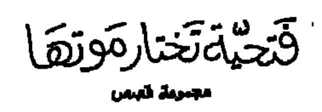

ليلى العثمان
فتحية تختار موتها
ح . التونى


فتحية تختار موتها
مجموعة قصص

الطبعة الأولى

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقياً شروق - تلكس 93091 SHROK UN
بيروت : ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE
SHOROUK INTERNATIONAL 318/318 REGENT STREET, LONDON W1, UK. TEL 637 2743/4, TELEX SHOROK 25779G

فتحية تختار موتها

مجموعة قصص

ليلى العثمان

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

فتحيـة تختـار موتـها

«ـ إلى الكاتب الفلسطينى .»
رشاد أبو شاورـ

من خلف الزجاج كنت أراقبها .. كان الصبح يطل بوجهه باردًا لا يزال . والشمس تتزلق فى السماء جدائل شقراء تغرس نفسها فى قلب البحر لتستحم ، وتثير الدفء رويدًا .. رويدًا .. حتى يصل إليها .. تحس به فترتخى أعضاؤها التى تيبّست إثر ليلة باردة .

تبدأ حركتها .. أرجلها تتحرك بمشقة .. تتشابك معًا لحظة كأنها بذلك تشد أزر بعضها بعضًا ، وَتتباعد لحظة أخرى .. تصير كأيدٍ غرقى تصرخ فى آذان بحارة منهكين .. يمرّون ولا يلتفتون .. فتهدأ . تتجمع على نفسها بذبول يتحول شيئًا .. فشيئًا إلى استسلام ما تكاد تعتاد عليه حتى تعود إلى حركتها العصبيّة محاولة التخلص من المأزق الذى وضعتها فيه هزّة هوائية مفاجئة ، وتنتظر أن تأتى هزّة أخرى لتعيدها إلى وضعها الطبيعى ، مستلقية على ظهرها الأملس ، لا تكف عن المحاولة ، وأنا .. عينان من خلف الزجاج تراقبانها .. وضعها يؤلمنى .. وضع مشلول لا يدعها تتحرك خطوة واحدة ، وقد تبقى على حالها زمنًا بينما الأزمان تأتى .. وتسافر .. وتصافح أوجه النهارات المشرقة . من يرضى

بهذا الأسر؟؟ من منا لا يتوق إلى الحرية فى كل لحظة ؟؟ فكيف لهذه البائسة أن تسترد حريتها التى افتقدتها ؟؟

أشفقت عليها ..

توسلت إليه وهو بجانبى يفرك كفيه الباردتين لتدفآ :

ـ أرجوك .. اعدلها لترتاح .. أو اقتلها لتريحنى ..

زفر :

ـ مالك ولها !! إنها مجرد خنفساء .

أبتلعت غضبى ..هكذا إذن ينظر إلى تلك المعذبة ..

هو لا يدرى أنها بنظرى ليست خنفساء ، وبإحساسى الداخلى هى ليست حشرة .. إنها مخلوقة أخرى تحاول فى ذلٍ ، وضعفٍ لا تعترف بهما .. لكن وضعها يشهد على ذلك .. تتمنى لو تمتد يدٌ .. أية يد ... قَدمٌ ... أية قدم ... لتحركها .. فتعتدل وينفكُ الأسر الذى جمدها طوال الليل .

صوتى المبحوح يكاد لا يصله .. كيف يدرى أننى أبتلع حزنى ؟ . هو فى النهاية رجل ككل الرجال ... لا يهمه أن تكون المرأة ـ الحشرة ـ مقلوبة .. أو معدولة ..

المهم أن تكون من وضع يناسب مزاجه .. ويريح رجولته .. ويرضى غروره .. هو يرى الحشرة كما هى « خنفساء » بينما أراها أنا ـ والسهم غارز فى الصدر ـ أراها ... فتحية .

* * *

رفضت فتحية أن تتحرك من فراشها .. صرخت فيها أختى الكبرى :

ـ قومى .. تحركى ....

لكن فتحية التى تحب النوم .. والاستكانة فى وضع واحد لا تريد أن تتحرك ... ظلت خاثرةً فى فراشها .. سحبت غطاءها المنقّش . وتأفّفت مرتين قبل أن تجيب :

ـ لن أتحرك ... ولن أذهب ... إننى أكره وجهها .

كنت الصغيرة .. رفض لسانى الذى يخرسونه دائمًا أن يتعاطف مع فتحية .. أن يعلن هو الآخر عن كرهه لذلك الوجه .. أنا أيضًا لا أرغب فى الذهاب لكننى ملزمة بأن أتخذ موقف الباقيات .

قالت فتحية كلماتها ... ثم أغمضت جفنيها لتعود بوهمها إلى الحلم الذى استفاقت منه ... وظننت أن أختى الكبرى قد استسلمت لموقف فتحية . لكنها عادت تهزها بعنف :

ـ قومى ... سيأتى أبى بعد قليل وسنغادر إلى هناك . انتصبت فتحية فى فراشها ، ثار شررٌ فى عينيها رغم قبحه كان يعّبر عن موقف تمنيت لو أمارسه :

ـ لن أذهب .. وأبى لن يجبرنى .. فلماذا أنت تُلحّين ؟؟ عادت تتكوم فى فراشها غاضبة ...

هنا .. جاء صوت أختى الثالثة تلاطف أختى الكبيرة :

ـ دعيها .. لا تفرضى عليها ...

لكن هذا اللطف أثار أختى فصرخت :

ـ لا .. لن أتركها ... لا يجب أن تنفرد بقرارها .. ولا برأيها .. لا يجب أن تنفصل عنا .. يجب أن تذهب .

دنت أختى الثالثة من فتحية هزتها بحنان :

ـ فتحية ... يجب أن تذهبى معنا ..

أكره الذهاب .. وأكره أن أراها ...

ـ كلنا نكره أن نراها .. ولكن يجب أن نفعل .. علينا أن نواجه أُمّنا .. سنقول لها كونى حنونًا يا أمى ..

لنحبك .. ونأتيك راضيات .

هزئت فتحية بما سمعت وقالت :

ـ لا يجب محاورة الأم .. هى تفعل ما تريد وعلينا أن نطيع .

ـ الحوار قد يفيد يا فتحية . قومى معنا ... يجب أن تسمع أمنا صوتنا .. يجب أن تعرف بأننا لا نرضى بهذه القسوة .

ـ ....

ـ قومى يا فتحيّة ...

ـ كلا .. لن أذهب .

ـ إذن .. تختارين التّفرد برأيك .. حَسن .. سنتركك وسنذهب ..

وقالت أختى الكبرى :

ـ نعم .. سنذهب ... سنواجه المصير وحدنا ..

قالت فتحية :

ـ ستكتم أصواتكن هى وزوجها .. وستفرقكنّ .

أخرستها أختى الكبيرة :

ـ لن تستطيع .. سنكون صلبات .. وليس مثلك جبانة .

ثم التفتت إلىّ وإلى أختى الثالثة :

ـ هيا .. أعرف مسبقًا ما الذى ينتظرنا هناك .

* * *

هناك فى بيت آخر ينتظر وجه أمى المستطيل تتلاعب ضفيرتان ثخينتان على كتفيها المرمريّين يداعبهما رجل آخر غير أبى .. وعلى صدرها تلتصق طفلة أخرى ترضع اللبن الذى حرمتنى منه ... لو ذهبنا الآن ... وفتحت الباب ... فلن يهمها أن تحضن بالشوق وجوهنا .. لن يرقص قلبها فرحًا ... بل سترقص عيناها لتعد وجوهنا :

واحدة ...

اثنتان ...

ثلاثًا ...

وأين الرابعة ؟؟

* * *

ارتعشت ...

بكيت ... لمحت أختى الكبرى دموعى .. فبكت مشفقة على طفولتى .. نسير نحو باب الغرفة .. صوت فتحية المتكومة فى الفراش يتبعنا :

ـ أرجوكن .. لو سألت عنى قُلنَ لها إننى مُت .

* * *

للموت صوت لا يسمعه إلاّ من يتمناه .. كان الموت بالنسبة لنا .. هو الحياة المريحة .. هذا التمزق بين الأطراف أرهق الطفولة : أجهض فرحها أكثر من مرة .. فتّت فى العظام نخاعها ... وأحترقت الأعصاب .. والشمس كانت حارقة ذلك اليوم ـ يوم الانفصال ـ كانت تعلن أن للموت أسبابًا وللحياة كذلك .. فهل يجب أن نعيشها مفتّتين؟؟ أو كاملى النمو والوعى ؟؟؟

* * *

وعى فتحية لم يكن يسبق وعينا .. كنا نتلمس الجرح .. نضغط عليه لأننا لا نريد لكميّة الألم أن تموت .. نريدها أن تنمو معنا ... تشحننا بالطاقة التى نستطيع معها أن نرفض تلك الأمومة الزائفة ونصرخُ يومًا فى وجه أمى ...

لكنّها اليوم ... تريد أن تنفصل ... أن تبقى وتزُجَّ بنا نحن الثلاث بأتون الغضب وكأننا نحن اللّواتى أردنا هذا الانفصال .. هناك .. ينتظرنا غضب أمى ، وشرّها الذى لن يراه أبى .. بل يحس به ... يقف أمامه مرغمًا .. سيقف عند رأس الشارع ليودّعنا .. ولا يجرؤ أن يقترب ... ولو فعل لخرجت إليه مهتاجة كما فعلت ـ جدّتى ـ من قبل .. يومها ضربت أبى أمام أعيننا .. وبكى .. ليس تألمًا بل حزنًا على نفسه .. وخجلاً منّا .. منذ دلك اليوم ابتعد .. يوقف سيارته بعيدًا .. ونترجل منها كما تترجل خيول تَعْلَمُ أنها ستباع .. أو ستُعْدَمْ .. أو ستسجن فى اسطبل لا تفوح منه رائحة الو[illegible] بقدر ما تفوح منه رائحة براكين الغضب .

يظل أبى واقفًا بحنانه بانتظار أن تقطع أرجلنا الطفلةُ المسافة .. وما أن نصل إلى الباب حتى نلوّح له ويلوح لنا مودعًا .. وفى كل مرة كان يخشى أن يكون

وداعهُ لنا نهائيًا .. لكنَّ المساء يأتى .. ونخرج خائبات نقطع نفس الشارع الضيقّ الذى جئناه والشمس تضىء ترابه .. نخرج منه والظلام دامسٌ يعلن عن ظلمة نفوسنا .. عن حزننا .. بؤسنا الذى عانيناه نهارًا كاملاً فى بيت أمى .. نقطع الشارع بأسرع ممّا دخلناه .. قلوبنا ترفرف كالعصافير .. نهتف :

نعود إليك يا أبى .. احملنا على جناح قلبك .. طِرْ بنا .. ونرجوك .. لا تَعُدْ بنا ثانية إلى هنا .

* * *

هنا .. تتكوم الخنفساء ...

وهناك فتحية كانت تتكوم .... ترفض أن تنزعها أختى من مكانها ... وفى داخلها تتمنى أختى ـ كما نتمنى ـ أن نتزرع فى الفراش مثل فتحية ونعلن لأبى أننا جميعًا نرفض الذهاب .. لكنها بذلك الوعى الطفولىّ .. تدرك أنه لابد من الحَركة .. لابد أن نواجه شرَّ أمى ... أن نعتاد عليه .. حتى نفهمه .. ونتعلم منه .. ثم نواجهها فى نفس السلاح .. لا بأس لو تضرّر جسدنا الطرى .. لا بأس لو مزّقتنا قسوتها التى لا يقف فى وجهها أى سد حتى الزوج الجديد .. يتفرج فقط .. فلا مهمّة له سوى إغداق المال .. وإرضاء الجسد البضّ الذى تفوح رائحة عطره .. وشرّه .

* * *

ذلك الشركان ينتظرنا .. تمامًا كما ينتظر الليل هذه الخنفساء لتجمد أطرافها فيه .. بانتظار صبح جديد تتنفس فيه ... وفتحية كذلك .. تريد أن تتنفس

اللحظة ولا يهمها أن تظل مكانها معطّلة .. لكنها لم تعطلنا .. حملنا أنفسنا نحن الثلاثة إلى سيارة أبي ... كان قلبنا الراجف لا يستقر. وحين لامست أقدامنا تراب الشارع ارتعدنا .. أحس أبي تلك الرعدة .. مَسَّ كتف أختى الكبيرة .. همس لها :

ـ إذا سألت أمك عن فتحية قولى لها إنها شربت اليوم ـ ملح أمريكى ـ

أحسست بطعم الملح ذاك فى فمى .. اهتاجت مصارينى قوقأت كما تقوقئ الدجاجة ويتسارع ثمرها المدفون فى داخلها فتبيض ... أمسكتُ ببطنى أهرسه وأصرخ :

ـ آه .. بطنى .. بطنى ...

حضن أبى وجهى .. يعلم ما الذى يصارع المصارين . الخوف .

ـ لا تخافى .. يجب ألاّ تخافى .. كونى شجاعة .

* * *

أىّ شجاعة !!!

حتى السماء كانت كدرة .. فاقدة لصفائها .. عابسة كأن شيئًا عزيزًا عليها فى الأرض يموت .. وشهدت أتربة الشارع ضربات القلب السريع .. سجلت آلاف الحكايا التى شغلت الذهن ونحن نقطع الشارع .

ماكاد الباب يفتح .. حتى تناثرت نظرات أمى :

ـ أين أختكم ؟؟

ـ لم تأت ...

قالتها أختي الكبيرة بذل .. وانكسار شق قلبي . وهوت يد أمي البضّة على صدغها .. رن الكف على خدى .

ـ وحدكن ! ! ... لماذا لم تأت معكن ؟؟

ـ شربت ملح أمريكانى ...

وصرخت أمى :

ـ حتى لو شربت كل ملح الأمريكان ... وسحبتنا إلى الداخل ... ارتدت عباءتها الحريرية .. نظرت إلينا :

ـ سأذهب .. وأحضرها ... وسترى ! !

خرجت كالبقرة الهائجة ... وبقينا نرتعش .

* * *

الخنفساء ترتعش ... الظُهر يرمى غلالته الندية على الأرض ... وعلى البحر المواجه لى .. وعلى الشرفة .. والغيم يتسلل بين لحظة .. وأخرى .. إلى وجه الشمس يصفعها ماكادت .. حتى بكت ... قطرات المطر تساقطت متسابقة تعشق على الارتطام والموت على رأس الحشائش الذائبة وجدا .. سالت المياه .. وصلت إلى الخنفساء ..

أحست برودة الماء .. انكمشت أكثر ... أكثر ...

الوقت يمضى بطيئًا ... هى معطلة ترتعش .. ترتعش ..

تذكرّنى بذلك الارتعاش الذى عشناه .

* * *

شمس الظهيرة حارقة ... حوش البيت ـ بيت أمى ـ نظيف لامع .. تتوسطه شجرة خضراء كبيرة بنت أمى حولها حوضًا مربعًا من الطابوق ... وحرست ترابه بنباتات صغيرة تتحمل الجوع ... والعطش ... وأمى ذكية تعرف كيف تختار النباتات القنوعة التى لا تأكل من خير الشجرة الكبيرة .. ولا يرتفع رأسها ... وهى لا تسقى مساحات التراب كلها ... فقط ... تحت الجذع الكبير حتى لا تولد نباتات أخرى طفيلية تتسلق الجذع .. وتنخره .. إنها تكره أن ينافس الشجرة أى نبات قوىّ ... وما هذه الأشياء المزروعة إلاّ لتزين ما حول الشجرة .

فى الليوان الذى يرتفع ثلاث درجات عن أرض الحوش كنا نجلس متلاصقات فوق المطارح الوثيرة والمساند المطرزة .. نتلاصق رغم حرارة الظهيرة ... كانت أجسادنا ترتعد ... زوج أمى يتنقل من الشجرة إلى آخر الحوش حيث تُربَطُ عنزة وهو متوترّ يحمل عصاه .. وكلما ازداد توتره رفع عصاه وهوى على ظهر العنزة .. فمأمأت المسكينة دون حراك .. ونحن نشاهد المنظر نحس لمس العصا على ظهورنا .. القلق يفترسنا ... يفترس زوج أمى ... تأخرت ... ماذا تفعل هناك ؟؟ ماذا تكيل لأبى ؟؟ ولزوجته الطيبة ؟ ! و ... لفتحية ؟؟

* * *

اعترفت فتحية بعد ذلك .. أن الوقت الضائع الذى انتظرنا فيه كانت أمى تقضيه معها .. أجلستها فى حضنها .. سكبت حنانًا وهمًّا عليها ... قبلتها .. أخرجت لها من تحت العباءة كيسًا مليئًا بالحلوى .. بالبسكويت ... أعطتها لعبة

تمنت فتحية أن تملك مثلها .. فأغرتها الهدايا ... والأطايب .. سحرها الحنان المفاجئ ... ونحن نرتعد متلاصقات ... محرومات من كل ذلك .. خائفات .. بينما فتحيّة تصدّق ! وتُخدع .. وتقوم مسرعة ترتدى ملابسها وترافق أمى ... وقالت لنا بعد ذلك إن أمى أكدت لها بأن كثيرًا من الحلوى والهدايا قد حصلنا عليه قبل أن تأتى لتأخذها .. ركضت فتحية .. وضعت يدها بكل ثقة بيد أمى ... وانطلقتا إلينا .

* * *

مرتعدات لا نزال كنا .. لكن وجه فتحية حين أقبل مستبشرًا ودّعتنا الرعدة .. تصورنا أن مولودًا جديدًا انبعث فى قلب أمى ليلم شملنا معًا .. فتقافزنا نستقبلها نشمّ الفرح الآتى معها .. نمزجه بفرحنا الذى انساب فجأة مع العرق المحبوس داخل مسامنا .. وحين توسطنا الحوش قريبًا من الشجرة .. صرخت أمى صرخة داوية جفلت لها قلوبنا ....

خلعت عباءتها .. ألقتها كمن يلقى النار واشتغلت . أخذت تنهال علينا ضربًا .. مزقت التصاقنا .. تفرق شملنا .. وقعنا .. اصطدمت جباهنا بحرارة الأرض فتكومنا ... اللعب ، الحلوى ، والهدايا تناثرت .. وزبد أمى يتناثر من فمها مُرًا .. فتحية تحاول أن تمسك بقطعة من الحلوى .. لكن قدم أمى ترفسها .. فتستلقى على ظهرها .. وتحاول بحركات يديها .. وقدميها أن تمنع ضربات قدم أمى ... صراع لا أنساه .. كصراع تلك الخنفساء التى يعذبنى وجودها .

كانت فتحية ملقاةً بانتظار أن تمتد لها يد واحدة منا .. فتعدلها .. لتقوم ..

وتحاول .. لكننا كنا نشحن أنفسنا بالقوة .. علينا أن نتكاتف .. لا وقت للتفكير في فتحية التى اختارت أن تنفرد بقرارها ... وكأنها بذلك قد اختارت موتها تحت قدم أمى المسعورة .. تنشل حركتها .. ونحن بعيدات عن موطئ القدم لا نزال .. وعلينا أن نتصرف .

* * *

ـ عليك أن تتصرف

همست له .. طبعت قبلة على وجنته التى دفئت ..

ـ أرجوك .. اخرج .. وتصرف .

تساءل :

ـ فى هذا البرد الشديد ؟

وانهمر توسّلى :

ـ أرجوك .. إما أن تعدلها لترتاح ... أو ... اقتلها . وابتسم :

ـ لم لا تنسى وجودها ؟؟

ـ إنها أمامى .. تضايقنى بمحاولاتها الفاشلة .

ربت على يدى :

ـ ليست كل المحاولات فاشلة .. بعض المحاولات جيدة ... ومنتجة .. لنتركها ... قد تفلح فى أن تنقذ نفسها .. من يدرى ! !

تدفقّ دمع إلى حلقى . همست :

ـ أنت لا تدرى ! حين تنقلب الخنفساء يصعب عليها أن تستعيد وضعها .. علينا أن نساعدها .

يومها .. حاولنا أن نساعد فتحية التى كانت تنسحق على ظهرها تحت قدم أمى الثائرة .. حتى اقتربت من الشجّرة .. تمسكت بجذعها تتمنى لو تخلعه من مكانه .. وتحتمى فى ترابه .. اهتزت الشجرة .. وتساقطت حبات « الكنّار » الحمراء المستوية .. لوكنا فى بيت أبى نملك مثل تلك الشجرة لتراكضنا معه نجمع الثمار .. نأكلها .. نتقاذف بالنواة بفرح .. ونشبع سعادة .. لكن فتحية أمامنا .. تتعذب ! لا طعم للثمر ... ولا للفرح .. حتى حين أقبل زوج أمى ممسكًا بعصاه .. فتوسمنا أن يخضع جنونها تحت لسع العصا .. لكنه لم ينس فى تلك اللحظة أن فتحية هى بذرة رجل آخر سبقه وفض بكارة المرأة التى هى ملكه الآن .. يناولها العصا .. تشد عليها بعنف .. تنهال على جسد فتحية المتكوم تحت الشجرة وهو يراقب منتصبًا بغرور !

* * *

انتصب أمامى ...

كنت أجلس على طرف السرير بانتظار أن يفعل شيئًا ...

يده امتدت لتفتح باب الشرفة .. فتحه .. هَبّ هواء مدهش صفع باب الغرفة فانغلق ... خرج ... مشى خطوة .. خطوتين ... خطوة أخرى ويكون قد وصل إلى الخنفساء .. هل سيعدلها ؟؟ هل سيقتلها ؟؟ ماذا سيفعل بالضبط ؟؟

قبل أن يخرج سألنى :

ـ لو عدلتها .. أو قتلتها .. هل سترتاحين ؟؟

لم أشأ لذهنى أن يسافر بى إلى أبعد من حدود الشرفة .. عدت أتابعه ..

رفع قلمه . قبل أن يهوى عليها كنت أصرخ :

ـ انتظر .

* * *

لم ننتظر ..

حين انهالت العصا على جسد فتحية رغم أن ذلك كان بسبب عنادها .. رفضنا أن يجرح الجسد أو يموت .. حاولنا أن نمد أيدينا إليها .. لكن الأيدى لم تصل .. كان يجب أن نفعل أكثر من امتداد اليد لكن ثورة أمى .. والشرر المتطاير .. أجفل الحركة منا .. كنا ثلاثة .. وفتحية واحدة ... لا نريد أن نموت معًا .. علينا أن نصمد .. أن نبقى .. أن نبتعد ... لنقوى ونعود يومًا إلى أمنا أكثر صلابة فى العود ، وفى الرأى ... وفى الفعل ... عندها لن تقاوم .. ولن تسلخ من جلودنا إصرارها ...

وابتعدنا ...

* * *

ابتعدت قدمه عن الخنفساء .. استدار نحوى ، كان أنفه قد احمر قليلاً من البرد الذى فاجأ وجهه ، تجمدت خطواته .. حضنته .. رجوته :

ـ أرجوك .. لا تقتلها .

تناثرت ضحكته .. حضَنَنى .. ـ أشهد أنىّ أحب هذا الرجل ـ فهمنى .. قال :

ـ أعرف بماذا تفكرين .

أدخلنى إلى الغرفة الدافئة حضن رأسى إلى صدره ، عابث شعرى المتطاير يُعدّل خصلاته :

ـ لا تحزنى .. ماكنتن مسئولات عن موت فتحية ... كانت الريح العاصفة أقوى .

ـ لم أنس المنظر ... رغم أننى كبرت

ـ كبر الوعى ...

أمسكت بيده .. انزوى إصبعى داخل كفّه وبللت قميصه بنهر من الدموع .

* * *

ويبقى الصوت حيًّا

تقول الحكاية : إن ذلك الصوت الحزين الباكى كان ينساب عبر نسيم الليل فى مكان ما . ليطرق الآذان .. ينسكب فيها انسكاب الماء الحارق على الجسد .. يأتى موجعًا .. مترعا بالألم .. فيه مزيج من الشكوى .. والابتهال . وَيُنْذِرُ بحدَّةٍ قد تتفجرّ يومًا فتصبح جنونًا يشق بكارة الحى الغافى دائمًا على حكايات صغيرة .

هذا الصوت موّال بدأ يُسَمعُ فى الليل ، يفوح صداه مثقلاً بروائح الألم . وفى النهار رغم الضوضاء والصخب ، يُحسُّهُ كل من يتحرك وكأنه داخل أذنه .. يشقها . ينتزعه من أشغاله اليوميّة ، مابين اللحظة والأخرى ، كأنه يذكره بأن الصوت ما يزال .

أصبح هذا الموّال يقلق الصمت .. ويفجرّ التساؤلات وهو حزين شاك لا يفتأ يردّد :

«قـلبى على طُويـرِ خَضَـرْ
شـــالوه من إيـــدى

مـا شـافـتـه الـعين لا

ومـا رضّـعـه دويـدىْ[1]

عـينى عماهـا مـلـحـهـا

والـنـار على خـديـدى

أصرخ وجـمـر فى الحشـا

ويـنـه ثـرى ولـيـدى . »

* * *

يوم الجمعة ينفض شمل المصلين . يخرجون من المسجد كل يحمل مسبحته ، تسبقهم آيات الحمد والشكر ، يتوزعون بين الدكاكين القريبة ثم يتفرقون متوجهين كل إلى بيته . يمرون عبر الأزقة الطينية حيث تبدو النساء الكادحات عائدات من « ساحة الصفاة »[2] بعد نهار شاق ، واحدة تحمل قفص الدجاج على رأسها . وتدب فى سيرها ، وشجار الدجاجات متواصل فى القفص ، وبعض الريش يتطاير حتى يلتصق « ببوشيتها »[3] الكالحة . وأخرى تحمل سلة مهترئة فارغة إلاّ من بعض قشور بيض تكسر وتلوّن بلون الصفار الذى تجمّد عليه . وأم خَضر ـ يعرفها أهل الحى ـ تدسّ بقشتها المليئة بحاجيات النسوة ، وغالبًا ما يكون حجم البقشة فى طريق العودة أصغر مما كان عليه حين خرجت فى الصباح . وبائعة الباجلاء تهف على وجهها وقد اختارت ظلا تحت الجدار . ولم يكن الطريق يخلو من همهمات .. وسلامات .. وأحاديث عابرة بين النسوة . وقد توقف إحداهن أم خضر لتفك بقشتها وسط الشارع لتتفرّج على ما لديها من حاجات .

ويتراكض الأطفال بين النسوة والرجال . يتطاير غبار الطريق تحت أقدامهم . ويشوطون الحجارة التى قد تنفلت وتسقط فى قدر الباجلاء ، فتثور بائعتة وتسب ولا من يسمع .

والبُنَيات الصغيرات على رؤوسهن تتربع «مطابق»(٤) اللبن وَهُنَّ قادمات من بيت أم على . أو صُرَر الملابس الملونة لقادمات من بيت ــ أم عُبيدى ــ الخياطة ، وقد يتلاسَنَّ أحيانًا مع بعض الصبية المهرجين .

* * *

تصب هذه الأفواج فى الشارع الطويل ، ومنه تتوزع عبر الطرقات الدافئة الضيقة العابقة بروائح الطعام .. والكاز .. وبخار التراب .

وكل من يمر عبر تلك الطرقات كان الصوت يتهادى إليه .. وكثيرا ما شوهد الناس وهم يرفعون رؤوسهم باحثين عن المصدر الذى يصل منه إلى آذانهم ونوافذ بيوتهم ، فتعلو وجوهم دهشة وحيرة ! بينما السؤال يتوالى مع توالى الليالى والأيام : مَنْ صاحبة ذلك الصوت المتفجرّ ألمًا بكلمات تؤكد نواح أم فقدت طفلها ؟؟

* * *

لم يكن أحد ليعترف من الرجال حين يتحلقون فى المسجد بعد صلاة العشاء بأن لهذا الصوت وجودًا . كأن كل واحد منهم يخشى أن تُلصَقَ به تهمة إيواء هذا النواح ، لكن الفضول النَسَوى كان يوقف سير الأقدام التى كثيرًا ما تَحَارُ أين تستقر ! فمن كل فراغ يأتى الصوت ، ومن كل نافذة يخرج .. ومن

كل حجر ينطبق . حتى أن بعضهن أخذ يُشيع أن «شيطانًا ما» يفعل هذا .. وبعضهن يؤكد وجود امرأة نائحة يستمعن إلى غنائها حتى تبتلّ بوشيّاتهن بقطرات الدمع .

تقول أم خضر وهى تفك بقشتها فى حوش أحد البيوت :

ـ كأن الصوت يأتى من بيت «فلان»

فتضرب أم سليمان على صدرها الذى يكاد قَفصه أن يشق الثوب :

ـ ويه ! عنده زوجتان أراهما كل جمعة فى السوق .

وتحرك أم خضر أناملها بشكل مروحة ثم تستغفر ربها ثلاثًا وتهمس :

ـ وعنده بنت عانس ! الله أعلم .

فتصفق أم سليمان كفًا بكف :

ـ لا حَول ولا قوة إلاّ بالله .. ولكن يا أم خضر هذه واحدة تنعى ولدها .

تَنْفُضُ أم خضر عباءتها وتهب واقفة :

ـ الشكوى لله . والله لا ندرى ما هى «السالفة» (القصة) .

وتخرج .. تترك السؤال مطروحًا : تُرى ! هل يأتى الصوت من بيت فلان حقا ؟؟ وتكاد المرأة تؤكد كلام أم خضر لتريح خاطرها .. لكن «عَبدة» [٥] «أبو وزّان» تهز قناعتها غير الكاملة حين تجىء فى المساء لتوصل غرضًا ! جلست وتجشأت فانتثرت فى المكان رائحة فجل . فهفّت أم سليمان بمهفّتها وهى تزم شفتيها قرفًا :

ـ الله هداك يا «غرّوبة» كأنك أكلت عشر شدات من الفجل .

ابتسمت بخجل :

ـ والله صحيح يا أم سليمان .. رَعَيْتُ اليوم بالفجل دون أن أدرى .. وأنا فى طريقى ظهرًا من الدكان .. جاءنى ذلك الصوت الشاكى .. تعوذت من الشيطان لأكمل طريق ، لكن الشيطان جبّار ، وسوس لى ، من هنا الصوت ، فأمشى ، لكنه غاب حين وصلت وكأنه يأتى من الخلف ويهمس لى : من هنا .. فأتبعه .. وأحس بالجوع فآكل من الفجل . ظللت ساعة وأكثر حتى كاد يؤذن العصر ولا فائدة ، الصوت يهرب إن لحقته .. ويلحقنى إن تركته .. و .... قاطعتها أم سليمان :

ـ ما الذى يجبرك ؟ غيرك فعل ما فعلت .. ولا أحد حتى الآن استطاع أن يعرف صاحبة الصوت أو مصدره .

فتفاخرت «غرّوبة» بصوت أَبح :

ـ ويه .. يرحم والديك ، بدأ الناس يتهامسون . وتفجرّ فضول أم سليمان بفرح :

ـ بماذا ؟ من تهامس ؟؟

تهربت غروبة من ذكر أى اسم :

ـ الناس .. أقصد بعضهم .. وحتى عمى «أبو وزّان» سمعته يهمس أن الصوت يأتى من بيت «أبو شهاب» .

ثم نفضت ثوبها : والله أعلم .

قالت أم سليمان :

ـ تقولين «أبو وزّان» قال هذا ؟

وانتثر رعبٌ على وجه غرّوبة :

ـ الله يخليك يا أم سليمان . لا تقولى أننى تفوّهت بهذا .. الله أعلم .. قلت لعمتى حين لا متنى على تأخرى ونقص الفجل الذى معى أننى كنت أدور وأبحث عن مصدر الصوت ، وأننى فعلاً لم أتعرف أو أقنع بمكان ..

ـ وماذا قالت ؟

ـ سحبت الفجل من يدى بغيظ . وعند الغداء سمعتها تحكى قصتى «لأبو وزّان» ، وهنا همس بما قلتهُ لك .

وعدتها أم سليمان بألا تنطق بما سمعت ، وحين تركت غروبة حوش الدار ، كانت أم سليمان تقف وفى خيالها خواطر ، وصور ، وتهيؤات ، ثم مشت وهى تهمس لنفسها : الشكوى لله الشكوى لله .. سأخبر «أبو سليمان» بما قاله «أبو وزّان» .

* * *

صارت الأغنية تتردد على أفواه النسوة وهن يخبزن خبز الرقاق .. أو يغسلن الثياب ، حتى وهن يفركن القدور السوداء بالرمل . وانتقلت العدوى إلى الأطفال صبية وبنات ، فأخذن يرددنها ليل نهار رغم صراخ آبائهن فى وجوههن ووجوه أمهاتهن اللواتى يرددن الأغنية .

وأصبح الأمر اعتياديًا .. المارّون يسمعون ، يبحثون ، ثم يعجزون . والنسوة بفضولهن يخترعن كل يوم حكاية ، والرجال يستغفرون ويهربون من مناقشة الموضوع . حتى كاد الناس بعد ذلك أن يتجاهلوا الأمر .. أو ينسوه تمامًا .

ذات صباح تعكّرت السماء بالغبار الأحمر . كان « ناصر» يمسك بيد أخته « وضحة » يقطعان الطريق من البيت إلى المدرسة . يوصلها أولاً ثم يكمل طريقه إلى مدرسته ليعود بعد الانصراف ثانية ، فيجدها تنتظره حاملة دفاترها ، وباليد الأخرى عصا من الحلاوة تمصّها بتلذذ ، تعطى له نصفها ما أن يصل .

في ذلك الصباح تأخرا في النوم .. لذا كان يجرّها من يدها راكضًا .

صرخت :

ـ لماذا تركض ؟؟

ـ لقد تأخرنا ..

وتوسلت بصوت طفولي :

ـ لا تذهب من طريق «الحوطة» .. أريد أن أمرّ على الدكان .

كررت وهو يجرّها :

ـ لقد تأخرنا . اشترى الحلوى من قرب المدرسة . وبإصرار قالت :

ـ لا أريد .. لا أريد ..

صفعها صفعة خفيفة على وجهها .. وشدّها إلى الحوطة ، يقطعانها إلى الشارع الآخر .

كان ملح السماء الأحمر يزداد .. والهواء يتلاعب بأوراق الأكياس وبعض القاذورات ، والحوطة خالية تمامًا إلاّ من عنزة تُركت لترعى بعض الورق والفضلات .. وهما يركضان رغم الحصى والعلب الفارغة . وفجأة هوت أخته منكفئة وصرخت :

ـ إنك تسحبني .

ـ لقد تأخرنا . هيّا .. قومى .

وانحنى ليرفعها عن الأرض ، فاصطدمت عيناه بكومة من التراب المبلل .. وقد تبعثر بفعل سقوط أخته عليه رفعها .. نحّاها جانبًا ، نظر إليها وتساءل :

ـ ما هذا ؟

فصرخت فيه كأنها تود الانتقام منه :

ـ هيا .. لقد تأخرنا .

وضع سبابته على شفتيه :

ـ هس . لنرَ ما هذا أولاً .

فجأة عوى كلب ، فارتجفت الصغيرة ، لكنه هدّأها .. وجلس بقربها .. وأخذا يتأملان الكومة الرطبة .. وتساءلت العيون الأربع .. تباعدت .. وتلاصقت .. ثم عادت تعانق كومة التراب .

مدّ يده .. أخذ ينبش الكومة فصاحت أخته بصوت مرتجف :

ـ لا .. لا يا ناصر .. يمكن أن تكون حيّة .

هدأها :

ـ الحية لا تدفن نفسها هكذا .

ويده لا تزال تنبش .. وتنبش . حتى بدأت تغوص بعد ذلك . وإذ اصطدمت بشىء ، التفت إلى أخته :

ـ وجدته .

شهقت :

ـ ما هو ؟؟

ـ كنز !

فرحت :

ـ كنز؟ ذهب يعني !

قال وهو يكمل رفع التراب :

ـ ذهب .. فلوس . المهم وجدنا كنزا . وحفر .. ثم مد كلتا يديه الصغيرتين ، وانتشل صّرة من القماش الأبيض . نفض عنها التراب ووضعها بينه وبين أخته :

ـ هيّا .. فُكي هذه الخيوط .

وانفرجت الصّرة عن مشهد جعلهما يقفزان صارخين بصوت واحد : يُمّه .. يُمّه ..

تثلجت أطرافهما لبرهة .. والكلب الذى كان يعوى فى آخر الحوطة اقترب .. وصلّب أذنين جرباوين ولسانه يلهث ، ثم اقترب . وأخذ يشم الصّرة ويرفع رأسه نحوهما .. ثم يدور .. ويدور بينما عيناهما تتقاذفان الخوف والسؤال . نطق أخيرًا بكلمات عوجاء :

ـ هذا ولد .

هزّت رأسها بإيجاب ، ولمح دمعة على خدّها تلوّنت بلون «الطوز»[٦] الأحمر .

طرد الكلب بحركة من يده .. ولمّا لم يتحرك أمسك بعلبة فارغة ، قذفه بها .. ثم بعصا . لحقه حتى ابتعد قليلاً ، وعاد إلى أخته التى مدت أصابعها تتلمّس جسد الطفل الطرى . وحين دنا منها سحبت يدها خجلى . فأخذ

بدوره يتفحص الطفل . يشد ساقيه ويديه .. وقال :
هذا ولد ميّت .. ولكن !
وبكت :
ـ واى .. أنا خائفة .. هنا يدفنون الأموات ؟؟ لامس كفها الصغير ليزيل بعض هلعها :
ـ لا .. يدفنونهم فى المقبرة .
وأشارت بإصبعها :
ـ وهذا ؟؟
ـ لا أدرى .
ثم انكفأ يلفّ الطفل بقماشه ، وغيره من الصبيّة والبنات بدأوا يهرعون عبر باب الحوطة . يقتربون .. يقتربون . وقبل أن يكمل وضع الطفل فى حفرته كانوا يتحلقون حوله متسائلين.. لكنه صرخ فيهم :
ـ ابتعدوا .. لا عليكم فى هذا الأمر.
وثار صراخ الأولاد .. ثم امتدت يد أحدهم لتشد «ناصر» من فوق التراب .. وسَحب الصرة البيضاء وفتحها أمام أعين الجماعة التى ماكادت ترى المشهد حتى تطايرت رعبًا . وتراكضوا إلى بيوتهم ليعلنوا الخبر. فَشدّ على يد أخته .. وألوى راكضًا هو الآخر ناسيًا المدرسة التى خرج إليها مسرعًا هذا الصباح .

* * *

سرى الخبر سريان النار فى الهشيم . وخلال وقت قليل كانت الحوطة تعج

بعشرات الرجال والنسوة وبعض الصبيّة الحفاة فى دشاديش النوم المقلّمة القصيرة يفركون أعينهم التى لم تشبع من النوم .

أخذ بعض الرجال يهش الجموع ، لكن الجموع تبتعد من جهة لتزدحم من جهة أخرى . وبدأ شجّار بعض الصبيّة ، وكأن ثأرًا قديمًا قد استفاق فجأة بينهم . بينما تقرص أفخاذهم وزنودهم أصابع الأمهات اللواتى يردن أن يسمعن كل كلمة ينطق بها الرجال المتحلقون حول جثة الطفل التى أصبحت مشاعًا لكل الأعين .

قال أحدهم :

ـ نواريها التراب .

اعترض آخر :

ـ هذه ليست مقبرة .

تنهد ثالث وتعّوذ :

ـ من الذى فعل هذه الفعلة ؟

صرخ صوت :

ـ أقسم أنه «ابن حرام» أرادوا التخلص منه !

هدّأه رجل :

ـ سَمِّ بالرحمٰن . لا تُقْسِمْ قبل أن تعرف الحقيقة . لكنه احتدّ أكثر :

ـ حقيقة .. أية حقيقة ؟

وأشار بيده إلى الجثة وأكمل :

ـ الحقيقة أمامك .. ولست أعمى .. جاهل ميّت مدفون فى حوطة .

عاد يهدئه :

ـ صحيح .. صحيح .. لكن يُمكن ! !

ـ لا يمكن .. ولا يصير .. هذه فضيحة تتوارى وتنكشف .

كان الغبار الأحمر قد تزايد ، والهواء يرتفع ويهبط فيحمل معه الورق .. وبقايا القمامات . حتى عباءات النسوة بدأت تتطاير ، ولمح أحدهم ساق امرأة فاقترب منها :

ـ أنت .. خذى ولدك وارجعى إلى بيتك ..

ولم ينته حتى كان لسانها ينفلت بالصراخ :

ـ ألم تجد غيرى ؟ كل هؤلاء ـ وأشارت بشكل نصف دائرة ـ كلهن ولا تجد غيرى .. أم أننى واحدة من أهل بيتك لتتحكم بي ؟

حمل الرجل نفسه وابتعد يهز رأسه .

أخيرًا جاء صوت أبو يوسف .. الرجل التقىّ :

ـ يا جماعة الخير ! صلوا على النبي . نحمل الطفل إلى « الدختر »[٧] أو إلى « الأمن العام » ونسلّمه هناك والحكومة تتصرف .

وتدخل أحدهم :

ـ لماذا لا ندفنه يا « أبو يوسف » وأحدنا يخبر الحكومة . حرام أن نحمل جثة الطفل بهذا الشكل . وافقت عدة أصوات :

ـ هذا أفضل .. هذا رأى معقول .

وتلفت « أبو يوسف » يستعرض الجموع .. والصغار وأشار :

ـ وهؤلاء الناس ! هل سيتركون الأمر بسلام ؟

ـ صدقت يا « أبو يوسف » صدقت .. صدقت .. همهمات انطلقت ، وكل

وجه يستعرض الوجوه الأخرى ، وأبو يوسف يقترح :
ـ هل يتكفّل أحدكم بالذهاب إلى الحكومة .. وآخر بحراسة الجثة ؟ أما أنتم ....
وشق طريقه بين الناس :
ـ أرجوكم .. كل إلى بيته .
وحين لمح وجوه بعض الأولاد الكبار صرخ فيهم :
ـ وأنتم .. لماذا لم تذهبوا إلى مدارسكم ؟
تراكض بعضهم بينما ردد باقون :
ـ الدنيا «طوز» عمى أبو يوسف .
هشّهم :
ـ زين .. زين .. يا الله .. كل واحد على بيته .
تفرق الجمع .. بقى اثنان قرب الجثة التى واروها التراب ، وانسحب ثلاثة فى طريقهم إلى التبليغ .
لم تتفرق النسوة .. سرنَ جماعات .. وأحاديثهن تتطاير مع تطاير الغبار والقاذورات .. وكل واحدة تتساءل :
ـ هل يكون الطفل ابن فلانة .. أو فلانة .. أو فلانة ....
ففى الحى المجاور نساء معروفات ! لِمَ لا تكون إحداهن قد أرادت الخلاص من الطفل ؟ وتساءلت أخرى :
ـ ولكن ! لماذا فى الحوطة .. لماذا لم تدفنه فى حوش بيتها ؟
ـ شىء عجيب . هذه حكاية لم تخطر على البال ! ولكنى أؤكد أنه ابن حرام كما قالوا ، وإلاّ لما تخلصوا منه .

سخرت واحدة :

ـ كأنك ترين ابن حرام لأول مرة ! كم من طفل وجدوه مع «مشيمته» فى «البلدية» بين الأوساخ !

ـ صحيح .. لكن هذا ميت .. وربما مخنوق !

ـ الخوف .. الخوف يا أم حمد .. أو ..

التفتت إحداهن إليها :

ـ أو ماذا ؟

ـ الله أعلم .. ربما يكون ابن عائلة ! !

وضعت النسوة أكفهن مفروشات فوق رؤوسهن وردّدن :

ـ الله اكبر .. الله أكبر .

وشهقت واحدة بصوت عال :

ـ يا جماعة .. تذكرت .. أينكُنّ عن الصوت ؟؟

ـ أى صوت ؟ ماذا تقولين ؟

انطلقت التساؤلات من كل الألسنة بفضول ، وكأنها تهزأ من جهلهن .

قالت المرأة :

ـ أيُ صوت ؟؟ كأنكن نسيتن !

وأخذت تردد :

«قلبى على طوير خضر ..

شالوه من إيدى ... الخ»

وقاطعتها إحداهن محتدة :

ـ بَسْ .. هذا غباء .. الصوت الذى نسمعه صار له شهور ..

اعترضتها أخرى :

ـ ما المانع أن تكون أم الطفل ؟

عادت الأولى تدافع عن وجهة نظرها بذكاء تفخر به :

ـ لقد رأيتن الطفل : هذا مدفون جديد .. وذلك الصوت قديم .. فهل تبقى جثة الطفل سليمة هكذا ؟؟

ساد صمت .. كأن كل واحدة تلعن غباءها .. وتهامسن :

ـ صدقت .. صدقت .

عادت الأولى وكأنها تريد أن تعيد ثقتهن بأنفسهن :

ـ كلامكن عن الصوت صحيح .. والله أعلم .. ربما أخذوا من صاحبته الطفل عنوة .. ودفنوه لكنه على أية حال ليس هذا الطفل .. هذا له أم أخرى أرادت التخلص منه .. ومن يدرى ربما أهلها ... ثم ضحكت :

ـ ومن يدرى أيضًا .. ربما غدًا نسمع أغنية أخرى . قالت إحداهن وبوشيتها تلتصق بفمها :

ـ إن كانت له أم مغدورة .. فما أن تسمع حتى تهرع إلى المكان .. أما إن ...

وأكملت أخرى :

ـ إن كانت هى وأهلها الذين تخلصوا منه فلن تتحرك .

ـ غدًا نسمع الأخبار .

قالت واحدة بحسرة :

ـ من أين يا حسرة ! الحكومة ستأخذه وتدفنه وتضيع قصته كما ضاعت قصص أخرى قبله .

* * *

ولم يكن مقدرًا أن تنام هذه الحكاية كما نامت قبلها حكايات .. فحين كان المارّة يسمعون بكاء طفل فى أماكن البلدية المنتشرة فى الأحياء . أو عند أبواب المساجد .. أو فى السوق يجدون طفلا فى « زبيل »[٨] تثور الأقاويل .. تلمع الشائعات ثم تصدأ بعد ذلك وينام عليها الغبار والنسيان .

* * *

استيقظت الآذان وصدى الصوت النائح يشق المسافات ، يعبر إلى الوجدان ، يهزّ النوم الراقد فى الأجفان .. ومنذ كبرّ المؤذن داعيًا لصلاة الفجر كانت الأغنية الحزينة تنطلق كصلاة تشق رقعة السماء التى هدأ نزيفها الأحمر. لم يعد الصوت وهمًا أجرد .. ولم تعد الأغنية مجرد صدى .. إنها حقيقة تؤكد نفسها اليوم ، وتمزّق شرايين الصّباح المتنفس بعد ليلة طال فيها السهر .. وكثرت الأقاويل .. والتخمينات .

نفض الناس عنهم دَبَقَ الأجساد ، والرجال فى طريقهم إلى المسجد تغيرت خطوتهم .. ساروا باتجاه الصوت الذى تأكدوا أنه حىّ يصرخ من حولهم .. ويقترب كلما اقتربوا .. وسحبت النسوة عباءاتهن وخرجن ، يلتقى فوج بآخر ، يلحق بهن الأطفال والصبية .. والرضّع على الأذرع لم يغتسلوا من بولهم بعد .. وربما لم يرضعوا . الصباح يحمل الرّنة الحزينة .. لا يسمع سواها ، وسوى صوت الأقدام .. يحذف أحدها علبة مبعوجة فتئق ثم تخرس .. وقدم يحذف عصا فتطير مستغيثة .. وخبطت قدم فى « براز» أحد الصبيّة .. فسحق نعل حذائه على التراب الخشن ، وفاحت رائحته القديمة ، فابتعد الناس مهرولين

كمن تلحقهم عصا إبليس .. والصوت يقترب .. ويقترب كلما دنوا من الحوطة .

وعند بابها توقف الجمع .. كان الصوت راقدًا فيها . عاريًا هذه المرة .. يؤكد حقيقته بنواح مذبوح .

اندفع الفوج .. وعلى التراب الرطب .. كان جسدها مُلقى .. عباءتها تنسدل عن نصفها العلوى فتبدو جديلتان فاحمتان تمتزجان بالتراب .. وصوتها يمتزج بدمعه ، جبّارًا كأنه يعنف هذا العالم الراقد تحت جذور الخوف وأتربة النهارات المرّة المتعاقبة .

لم تجرؤ امرأة من قبل أن تعلن عن نفسها ، واليوم ! ها هى قد انكبت على القبر الفارغ ! تنبشه بأظافرها .. مزّقت رمله .. وطحنت حصاه ، وحين لم تجده فاح عواؤها البائس ..

ورددت الأغنية التى ربما كانت لأم مفجوعة قبلها .. أو لأمهات توأد قلوبهن فى الليل تحت تراب الأرصفة الشرهة للحم الخطايا الدائـمة .

انكفأ رجلان .. رفع أحدهما العباءة ليستر وجهها .. وأمسك الآخر بذراعيها ليقتلعها من على التراب . لكنها التصقت بالأرض التصاقًا يتحدّى الأذرع القوية الممتدة .. غرست كفيها فى القبر المفتوح وصرخت :

ـ دعونى .. أموت . لقد قتلوه .

لم يكن همّ الرجال مُسلطًا على معرفة المرأة ، فهم حتى لو شاهدوا وجهها تحت أشعة الشمس المشرقة لما عرفوها .. لكن فضول النساء كان يغلى .. كل

تريد أن تلمح ولو طرفًا ، عينًا .. أو شفة أو خدًا .. لعلهن يحدسن من تكون .

لكنها لا ترفع وجهًا .. ولا تشعر بوجود من حولها .. لا تحس بالفضول القاتل المطل من العيون ، لاترى حولها إلاّ أشباحًا لأيد مزقت البارحة قلبها .. واختطفت الطفل منْ بين فخذين استسلما للعشق ذات ليلة .

* * *

تجذّرت المرأة فى الأرض .. تسكب عصارة الروح الجريحة .. وتنبع آهاتها كما تنبع نافورة دم من أرض داستها أقدام دخيلة نجسة .. وصوتها يعلو .. وينخفض مبللاً بالأسى .. ممزوجًا بنغمات كأنها حدّ السيف يذبح سامعيه ..

«أصرخ وجمر فى الحشا ..
هـذا ثـرى ولـيـدى
هـذا ... ثـرى ولـيـدى .»

وتهطل دموع الرجال الذين يحاولون انتشالها .. لكن الجسد ثقيل .. كأن آلاف الرمال والأتربة والحصى دفنت فيه .

* * *

كان النهار قد شعشع .. جدائل باهتة بلون الوجوه .. ونواح النسوة .. يتقاطر .. كل تقف فى مكانها تغطى صفحة الوجه ببوشية سوداء رطبة . لم تعد واحدة تبحث بين الفوج عن شبر تطل منه لتعرف وجه المرأة . كان الحزن قد تدفق إلى صدورهن . فمات فيها الفضول .. ماذا يهم أن يُعرف وجه المرأة ؟ كان

الغضب يلازم أنّات البكاء .. يودّ لو يصرخ فى وجوه الرجال المتحلقين ... أن يشير بالأصابع ! أن ينفلت كما تنفلت أنّات المرأة ! وكما انفلتت جدائلها السوداء تتعفّر بتراب الأرض .. بملحها الذى رُشَّ على جثة الطفل ... وكانت العيون تتساءل : أين ذلك الرجل الذى شاركها الفعل وزرع البذرة ؟؟ لماذا لا يأتى كما جاءت !! ولا يبكى .. كما تبكى .. ويتمزق .. كما تتمزق جوارحها ؟؟ لكن الغضب لا يخرج .. والصرخة حبيسة تخشى الانفلات لترتاح من ثقل سنوات الصمت .

حاولت إحداهن أن تشق طريقها .. وتقترب حاملة طفلها الرضيع .. ودّت لو تمدّ يدها به إليها .. وتستحلفها بالله :

ـ خذى .. هذا هو ابنك .. لم يمت .

لكن الخوف المنسوج كخيوط العنكبوت أوقف المحاولة .. وكذلك الصرخة الداوية التى ارتعد لها الفوج كله .. واستفاقت منه عيون الرضّع النائمة .

صرخة المرأة مزّقت وجه الفجر المتفتّح .. ثم ارتدت سكينٌ شقت الصدر الذى تمزّق ثوبه .. وانكفأت بلا حراك .

* * *

حين تفرقت الجموع تسحب خطاها بحزن تحمل عثار طريقها الذى ما استطاعت جدائل الشمس أن تنيره .. كانت تتهادى إلى الأسماع تلك الأغنية ! حزينة .. لا تزال .. لكنها شديدة الوقع .. تخترق الآذان وكأنها تطرقها بآلاف المطارق .. توقظ فيها شيئًا .. تذكرّ أن الصوت حىّ .. وأنه .. سيبقى .

وتقول الحكاية إنهم حين جاءوا ليحملوا جثة المرأة .. وجدوا حليب ثدييها المكتنزين يصُب فى القبر .. ويروى التراب .

دفنوها .. دفنوا سرًّا عاش بصدرها .. ومات معها . لا أحد يعرف الحكاية .. وحدها فقط كانت تعرفها . ولو بقيت عيناها مشرقتين على هذا الأفق الجاحد لروت حكايتها التى تقول : ....

....

....

....

إشارات :

١ ـ دويدى — تصغير لكلمة ـ ديد ـ وتعنى ثدى .

٢ ـ ساحة الصفاة — ساحة رئيسية فى مدينة الكويت .

٣ ـ بوشيّة — غطاء الوجه للنساء ولونه أسود خفيف .

٤ ـ مطابق — جمع ـ مُطْبَقْ ـ وهو وعاء خاص لوضع اللبن .

٥ ـ «عبدة» — خادمة مملوكة . غرّوبة اسمها .

٦ ـ الطوز — الغبار الأحمر الذى يأتى فى الصيف .

٧ ـ الدختر — الطبيب .

٨ ـ زبيل — قفّة .

ينفصل الوطن .. تنفصل الطريق

للجرس نغمات خاصة كأنها رقصة سجينة تنطلق ، ونهاية اليوم الدراسىّ تعنى الحرية لمساجين الفصول الدراسية الساخنة ، ويحلو الهرب بعد يوم رطب .. دبق تتلاصق فيه الثياب بالجسد .

فى دقائق انفلتت الطالبات من الصفوف كما تنفلت الخيل المنتظرة إشارة السباق . أصوات أقدامهن المتراكضة على الأرض تثير أنغامًا حماسيّة تختلط مع الأنغام المنبعثة من السيارات المنتظرة . وتنسجم مع اللحن الذى ينبعث من راديو الباص .

تقافزت الطالبات إلى جوفه بعضهن ضاحكات تتناثر خصلات شعورهن على جباههن الرطبة .. وبعضهن يبدو أثر دموع فى عيونهن . ذلك يعنى أن نتيجة اليوم الدراسى لم تكن مرضية .

أسراب .. أسراب .. تدلف إلى بطنه حتى كاد يمتلىء إلى عُنقه . صارت الخيول المنفلتة سردينا يتلاصق رغم الرطوبة ، وانبعثت رائحة العرق ، ورائحة الجوارب ، وأحذية الألعاب المهترئة .

ـ أُف .

زفر السائق . سحب منديله وغطى به أنفه ينتظر اكتمال العدد . بينما صراخ الطالبات وأحاديثهن تضيع مع الأنغام التي كانت مسموعة من شبابيك الباص قبل امتلائه .

صاح السائق مناديًا بعض الطالبات المتجمعات حول بائع «الآيس كريم» فَهَرَعْنَ إلى الباص الذي ما كاد يبتلع أجسادهن حتى أُغلق بابه .. وحرك السائق المفتاح . وقبل أن يتحرك .. امتطت سيارة فارهة أمامهُ . وسدت عليه الطريق .

ضغط على البوق .. مرة .. وثانية .. لم يستجب سائق السيارة الفارهة .. ضغط مرة ثانية .. كأنه يحذّر من غضبه لكن السائق الآخر لم يتزحزح .

* * *

الحر شديد .. الباص يكاد يستفرغ ، الرطوبة .. أنفاس الفتيات .. صراخ بعضهن يراجعنَ مادة الجغرافيا التي كان يكرهها مذ كان تلميذًا . التفت إليهن وقد بدأ يفقد أعصابه :

ـ اسكتن يا بنات .. ارحَمْنني .

تضاحكت الطالبات ، تغامزن عليه .. وعدن إلى ثرثرتهن ولكن بصوت أقل حدّة .

يده على البوق ثانية .. ثلاث ضغطات .. طوط .. طوط طوط .. لكن السائق كاللوح لا يتحرك .. ومن نافذة السيارة الخلفية أطل وجه امرأة هندية ملأ الشيب مفرقها ومن عينيها أطلت نظرة ضجر .

ما دام وجه الهندية قد أطل فلا بد أن السائق قد تنبّه إليه .. فتمادى فى الضغط على البوق .. أمله يخيب . يزفر .. يضغط .. يمسح العرق .. يضغط .. تمد الهندية ذراعًا ذابلاً زمتّ أطراف أصابعها وحركت يدها بإشارة تعنى .. مهلاً .. مهلاً .

لكنّه لم يتمهل .. ألقى بكل ثقل كفه على البوق .. ضغطت البنات على آذانهن .. بينما تطايرت أخريات كُنَّ قد التصقن بالباص تحادثن من فى داخله .. وتتفقن على بعض الأشياء للغد .

* * *

أخيرًا .. ترجّل سائق السيارة الفارهة .. كان يبدو وكأنه فقد أعصابه .. دنا من الباص .. خاطب السائق من نافذته المفتوحة :

ـ يا حمار ! لماذا تنهق ؟؟

تضاحكت الطالبات .. كأنهن يشمَتْنَ بالسائق الذى يُخرسَهُنَّ دائمًا .. ولكى يدارى خزيه من الطالبات تكلم بهدوء :

ـ سامحك الله .. أريدك أن تفسح لى الطريق .. لقد عطّلتنا .

لكن السائق الآخر هزّ يده فى الهواء وزعق :

ـ تعطّل . ما الذى يحدث لو تعطلت ؟ هل تحمل ابن وزير أم ابن رئيس ؟؟

هدّأه السائق :

ـ يا أخى .. أرجوك .. الدنيا حر .. والبنات لهن أهالى ينتظرون .

لكن الآخر رفض مهددًا :

ـ لن أمشى .. ووالله لو نفخت بوق باصك هذا ثانية فسأجعل سيدى يأتى

غدًا .. ليحطّم رأسك . تنهّد سائق الباص مستسلمًا .. أطفأ المحرك .. مسح بمنديله المتسخ عرق وجهه والتفت إلى الطالبات :

ـ هيا اسكتن .. ستبقين فى هذا الفرن حتى يتكرم هذا السائق المغرور .. ويتحرك .

لاح يأس على وجوه الطالبات .. تهامسن :

ـ هذا سائق غنيمة .

تناهى للسائق همس الطالبات .. التفت إليهن :

ـ غنيمة من ؟ ابنة من ؟؟

لم ترد عليه واحدة .. انكمشن صامتات .. بينما تعرقت ثيابهن حتى بدت وكأنها مغسولة بالماء .

مرّت نصف ساعة قبل أن تقبل من داخل المدرسة طالبة سمراء .. فى الرابعة عشرة من عمرها .. تبدو أنيقة .. مرتبة .. حذاؤها رغم تعب النهار يبدو نظيفًا .. تربط جديلتيها بشرائط بيضاء ناصعة .

ـ آه .. يبدو أنها بنت أكابر .

قال سائق الباص وهو يلتفت بنصفه إلى الطالبات .

ردت طالبة :

ـ أبوها تاجر كبير مشهور .

ـ ومغرور .. وسائقه مغرور .. وطبعًا ابنته مغرورة . تصايحت بعض الطالبات باحتجاج :

ـ لا .. غنيمة ممتازة .. متواضعة .. طيبة .. و .. و ..... هزّ يده مهدئًا :

ـ طيب .. طيب .. الله يرزقنا كما رزقها .

تفوه بأمنيته .. ولم يكن يتصور أنها مخزونة فى قلوب الطالبات المكدسات . .
فوجئ بأصواتهن تردد :
ـ آمين ....

* * *

الطالبة السمراء تقترب . الهندية ذات الذراع الذاوى تترجّل تحمل حقيبة الطالبة ، تفتح لها الطريق . السائق ينزل من السيارة يفتح الباب .

دلفت الفتاة .. استرخت .. نوافذ السيارة مغلقة .. فى الداخل مكيف هواء يعمل .

تحركت السيارة .. فتحرك الباص . مدّ السائق يده أدار جهاز الراديو فجاء صوت المذيع أجش يقرأ نشرة الأخبار .

ـ أف ..

زفر السائق ، وأخمد صوت المذيع وهو يزفر :

ـ أخبار الشوم ..

سألته إحدى الطالبات :

ـ ليش ؟ ما بدّك تسمع أخبار الوطن ؟؟

ـ إيه .. خلوها مستورة .

كأن الطالبات عرفن سرّ التنهيدة الطويلة العميقة بدأن يصفقن ويغنين : « هو ذا الصوتُ من الأرض السمراء آت .... من حقلى .. من شمسى .. من آلام شعبى آت » شدّه الحنين إلى الوطن .. دمعت عيناه .. لاحظت إحدى الطالبات الدمعة الحزينة المنهارة على خدّه :

ـ لماذا تبكى ؟؟

ـ تذكرت البلد .

ـ هل تذكرها جيدًا ..

ـ بالطبع .. غادرتها حين كان عمرى عشر سنوات .

ـ آه ..

تنهدت طالبة وتابعت :

ـ نحن لا نعرفها .. أهلنا فقط يتحدثون عنها .. فنحبها . هز رأسه :

ـ الوطن غال يا بنتى .. الوطن غالٍ

يرتفع صوت الطالبات بنغمة شجيّة :

باسم الحرية .... راجعين يا فلسطين ...

فلسطين عربيّة ... .

الصوت يعلو .. الحر يتزايد .. الشمس المحرقة ، وتحدّق إشارة المرور الحمراء بوجه السيارات .. أشار سائق الباص إلى الطالبات :

ـ هس .. اسكتن .. بلاش أغانى .

كانت السيارة الفارهة التى تحمل غنيمة ملاصقة فى تلك اللحظة للباص .. تدّلت رؤوس الطالبات إلى السيارة أطل وجه غنيمة من خلف الزجاج .. ابتسمت ، أشارت بيدها تحيى .. فتحت النافذة .. تصايحت الطالبات .. كل تريد أن تقول كلمة .. قبل أن ترد غنيمة على كلماتهن كانت الإشارة تبتلع غضبها الأحمر .. ويتبدل إلى أخضر.

* * *

الطريق الممتد واحد .. أخذ سائق الباص يسابق السيارة والطالبات يغنين .. فَرحات .. وحين تسبقهن السيارة ترتفع أصواتهن باحتجاج :

ـ ياه .. أبو راجح الله يخليك اسبقها .. اسبقها .

يتعجب :

ـ إيه ! أسبق كاديلاك ؟ هذا باص «كَحيان»[1] . ويختلط رجاؤهن :

ـ ولو اسبقها ..

ـ بَسْ .. أمامنا إشارة ثانية .

يقف الباص ... السيارة بجانبه .. تطل الطالبات وهن يرددن باقى الأغنية الحماسية :

«وجئت طلقة .. وجئت صفعة ...

لكل ضمير خائر ...

تركت النجم .. تركت الآه .. تركتُ النغَم الحائر و ....» .

غنيمة تفتح نافذتها .. تطوف على وجهها سحابة حزن وتمَن . يلتفت سائقها يشير لها أن تغلق النافذة التى تسرّب منها صدى أغنية شعبية وطنية .

صوت الطالبات يرتفع يتحدى ارتفاع النافذة الزجاجية . غنيمة تبتسم لهن .. تشير بحماس .. انسجام هادئ يطل من عينيها .. وألفة .

* * *

عند آخر إشارة يفترق الباص عن السيارة التى دلفت إلى أحد الأحياء السكَنية .. ويتحول الباص إلى منطقة «حَوَلّى»[2] حيث ستبدأ رحلة توزيع الخيول إلى اصطبلاتها .

الحياة عامرة .. المحلات التجارية .. البقاليات المتناثرة .. المارّة تكتظ بهم الأرصفة ... رجال .. نساء طالبات .. وطلبة .. يهرولون هربًا من الحر إلى البيوت ، المطاعم ومحلات شيّ الدجاج تفوح رائحتها الذكية فتثير إحساس الجوع فى نفوس الطالبات .. يتلمظّن . تتمنّى إحداهن :

ـ ليت أمى تكون طابخه دجاجًا ..

قالت ثانية :

ـ اليوم سنتغدى «مجدّرة» (٣)

شهقت أخرى :

ـ ياه .. أنا أحبها ...

بينما تأففت أخرى :

ـ يوه .. أنا أكره هذه الأكلة .

لم توافقها كثيرات من الطالبات .. حتى سائق الباص :

ـ هذه أكلة غنيّة .. إنها «مسامير الركب» ضحكت الطالبة :

ـ لا أريد مسامير لركبى ، أنا قوية .. ألعب الجمباز أحب الدّسم .. دجاج . لحم .. بازيلا .. بطاطا ..

ـ إيه .. صحتين على قلبك

قالها السائق وتوقف عند أول المنعطفات وفتح باب الباص :

ـ هيا .. اللى عليهن الدور ...

تدافعت خمس طالبات .. وما أن أغلق الباب حتى أخذت من فى الباص يشرن بأيديهن مودّعات لصويحباتهن متمنيات أن يأتى دورهن بسرعة .

خَفَّ حمل الباص .. أخذ الهواء الرطب السجين حريته .. لطفَ الجو قليلاً .. انخفض صوت الطالبات .. يتحادثن أحاديث مختلفة ويقلدّن بعض مدّرساتهن أو يشتمن بعضهن .. ونسين فى غمرة مرحهن التأخير الذى حدث حين أصَرَّ سائق غنيمة على الوقوف .

* * *

سيارة غنيمة تبدأ رحلتها فى الحى السكنى .. الهدوء يخيمّ على الشوارع .. لا محلات تجارية ! ولا بقاليات : لا رائحة دجاج ولا زعتر تفوح .. النظافة واضحة والحشائش المزروعة تلفظ أنفاسها الخضراء فى هذا الحر الشديد .. أغصان الشجر تلبدت أوراقها ... فلا نسمة تهزّها .. ولا حركة بشر .. ولا أغنيات تنبعث من شبابيك باص !

أحست بالضجر .. لا يزال سَمْعهَا يحمل رنة الأغنية الحماسية .. قالت فى نفسها :

ـ « غدًا .. سأطلب منهنّ كلمات الأغنية . »

فرحت لهذا القرار وهى تتذكر وجوه الطالبات ، الفرح المنتشر على وجوهن رغم تكدسهن فى باص غير مكيّف .. وتنهدت ..

* * *

فى البيت .. فاحت رائحة الطعام الشهىّ .. رغم هذا قالت لأمها :

ـ لا أحس برغبة فى الأكل .

وانهال دلال الأم .. أخذت تعدّدها الأصناف المطبوخة والمقبّلات .. لكنّ

الفتاة ظلت صامتة .. تجول عيناها فى أنحاء المكان .. كل شىء نظيف .. جميل فخم .. رائحة العزّ تفوح كما تفوح رائحة الطعام . وصوت أمها يأتى كأنه من البعيد .. فى أذنيها لا تزال تتلاعب موسيقى الأغنية التى لا تحفظ كلماتها يتماوج معها صوت ضحكات الطالبات وفرحهن الصادر من القلب .

تطلعت فى وجه أمها وإذا سحابة خوف تنتشر عليه :

ـ غنيمة .. ما بالك ؟؟ هل أنت مريضة ؟؟

ـ لا يا أمى .

ـ إذن .. ما بالك صامتة ! ولا تريدين أن تأكلى ؟؟

ـ أنا أحلم .. أحلم يا أمى ..

واستلقت على المقعد الوثير وسؤال أمها ينطلق فرحًا :

ـ تحلمين ! بماذا ؟؟ قولى كل أحلامك تتحق حالاً .

تلاعب حزن فى وجه الفتاة .. أكدت لأمها :

ـ إلاّ هذا الحلم .

وحثتها أمها :

ـ كل الأحلام أحققها لك ..

اعتدلت :

ـ إذن .. أريد أن أركب الباص مثل بنات حَوَلّى .

و .....

انكمش وجه الأم .

* * *

---

١ ـ كحيان كلمة فلسطينية بمعنى « قديم ومهترئ ».

٢ ـ حوّلى ـ منطقة أغلب سكانها من الإخوة الفلسطينيين

٣ ـ مجدّره ـ أكلة فلسطينية ـ مثل الكشرى .

على سفر

صفرة السماء الذهبية تنعكس على الوسادة ، ورأسه مصلوب عليها .. أنظر إلى جثته ممدّدة أمامى .. غير مصدّق أنه مات ... ولولا صراخ أمى وولولتها لظننت أنه يغفو غفوة طويلة سيصحو منها بعد حين .

إخوتى يتحركون حول الفراش .. ينظرون إلى وجهه الأصفر .. هل حقا هو يودعهم إلى الأبد ؟؟

وحدى كنت لا أعبأ بهذا الجسد المسجّى .. أنظر إليه يملأنى الحقد .. وتتناثر نظراتى عليه مع زفرات حسرة كثيرًا ما كتمتها .. وصراخ فى داخلى يكاد أن يشق الصدر وينطلق لولا صوت أمى يكتم دونه كل صوت .. تولول :

ـ اتصل بعملك .. اتصل بالجيران .. بالإسعاف .. افعل شيئًا .

يتطاير إخوتى .. أحدهم يقطع المسافة ما بين السرير وباب غرفة النوم كالحلم .. آخر يمسك بسماعة الهاتف ويزج إصبعه داخل الدوائر يحرّكها بأرقام لا تلتقطها عينى .. أحسن أنه يخطئ الرقم .. كيف عرفت ؟؟ عيناى تتابعان إصبعه .. ها هو يضغط على دواسة الهاتف ويعيد طلب الرقم ثانية .. أمى لا تزال تولول ..

وحدى أقف لا أفعل شيئًا ... أسلط عينى على وجهه ثم أسافر بهما فى أرجاء الغرفة الفاخرة .. هذا السرير العاجىّ .. وتلك اللوحة النادرة التى تتصدر الحائط فوقه .. وهذان شمعدانان بالتأكيد لم يضيئا مرة .. هما للزينة فقط .. وبقرب السرير ترتاح الشمّاعة المذهبّة ملابسه تتدلى منها .. دشداشة حريرية تتساقط أكمامها جانبًا بفعل الثقل الذى تحمله تلك الأزرار الذهبية .. غترته البيضاء معلقة فوق العقال .. تحرك أطرافها نسمات الهواء الباردة الآتية من فتحة التكييف .. أحسها تولول هى الأخرى تبكى صاحبها .. وعلى السجادة ذات الشعر «الموهير» يرتاح نعلاه جلد التمساح :. واحد فوق الآخر .

ـ على سفر ـ هكذا يقولون . ولذلك كانت أمى تحرص على ألا يركب نعلا أبى واحد فوق الآخر لأنها تكره سفره عنها . لكن أسفاره لا تتوقف . حاولت أن تبقيه فى البيت شهرًا واحدًا دون أن يغادر مرة واخترعت حجتها لذلك قالت له :

ـ أشتهى أن تحتفل معنا بعيد رأس السنة الجديدة .

لكنه نظر إلى وجهها يفوح من نفسه اشمئزاز :

ـ ماذا أفعل بينكم ؟ هل تحتاجون لشىء ؟؟

قالت أمى :

ـ لوجودك .

وطبطب على كتفها :

ـ البركة فى الأولاد .

وقبل أن يغادر التفت إليها كَمَنْ يطمئنها :

ـ سأترك لك مبلغ عشرة آلاف دينار .. قد تطول سفرتى .

عيناى على نعل أبى .. واحد فوق الآخر. أبى على سفر. هذه المرة يسافر إلى الأبد.

اقتربت .. أردت أن أزيح النعل عن رفيقه لكنى تراجعت .. خشيت أن يصحو ويقرر أن يبقى ثانية وأنا لا أريده أن يعود .. تركت النعلين وعدت بنظرى إلى جسده المستريح بوقار على السرير المجهز بآخر صيحات الديكور .. أزرة تملأ رأس السرير.. هذا الزرار تلبى أمى نداءه .. وهذا يلبى نداءه السكرتير «مُنْعم» . يأتى حاملاً البريد وأوراقًا أخرى تحتاج لتوقيع .. وشيكات كثيرة يحمل كل واحد منها رقمًا خياليًا . وهذا الزرار «لسلّوم» الصبى يأتى حاملاً القهوة المُرّة .. يَصُبُّ وأبى لا يشبع وينتظر حتى يهز الفجان مُكتفيًا . وقد راقبت أكثر من مرة وجه سلّوم مُتململاً بانتظار أن يتكرم أبى ويهز الفنجان .. واصطدته أكثر من مرة وهو يكرع باقى القهوة فى الممر الذى يفصل غرفة النوم عن الصالة الكبيرة . سلّوم يتكوّم الآن قرب السرير مثل حيوان بانتظار أوامر سيده يستند بذراعيه على ركبتيه ويسقط رأسه بين الذراعين .. دمعة تترك آثارها على وجنته السمراء الداكنة .. وأشفق عليه .

لماذا يبكى ؟؟ هل يفكر بمستقبله بعد أن رحل وَلِىّ نعمته ؟؟ أم تراه حقًا يبكى أبى الذى لن يرى وجهه بعد اليوم .. ولن يصب له قهوته .. سلوم يحب أبى فعلاً رغم الضرب المبرّح الذى يناله لأتفه سبب . هو جالس الآن كالكلب الأمين يبكى صاحبه .

جرس الهاتف يزعق .. يرفع أخى السماعة وكأنه يعرف صوت مَنْ سيأتى . صوته يخترق سمعى .

ـ نعم ياخالى .. أعطاك عمره .. تعال بسرعة .

قبل أن يغلق تمتد يد أمي تسحب سماعة الهاتف .
ـ ياخوى مات .. بوحمد مات .. أبو عيالى مات . نشجت بعواء جديد تساءلت لماذا يصدر عنها ! هى التى رغم عطايا أبي لم تكن يومًا سعيدة معه .

* * *

كان شجارهما يصل إلينا دائمًا .. لهاث أمي .. صوت بكائها يخترق حائط الغرفة ليفجّر فينا ينابيع الحقد على أبي. قبل سنوات كان لا يتوانى عن ضربها أمامنا بالعقال .. أو بالنّعل .. كانت تكتئب وتدارى.وجهها المبتل خجلاً منا .. وبعد يوم أو اثنين نراها باسمة فى وجه أبي .. وتراه يقدم لها مصوغة جديدة من الماس أو الذهب .. وترضى .. وفى نفس اللحظة تخترع مناسبة :
ـ غدًا سأدعو بعض الصديقات على فنجان شاى . يبتسم أبي بمكرٍ يفهم أن المناسبة هى أن ترى الصديقات الهدية الجديدة وستعرف أمي كيف تخترع سببًا وجيهًا تؤكد من خلاله حب أبي لها وسخاءه عليها . لكنها بينها وبين نفسها تفهم أن هذه الهدية لم تكن إلاّ ثمنا للصفعة التى حصلت عليها .. وبكت ليلة أو ليلتين ذُلا وحزنًا .

الآن هى تولول ... أف .. لماذا تحزن ؟ لماذا لا تزغرد ؟ لماذا لا تواجه أبي بفرحها وتنتقم من كل الأيام والسنوات السالفة ؟؟

وسلّوم أيضًا يبكى .. لماذا يتكوّر هكذا قرب السرير؟ دنوت منه :
ـ قم .. حضّر القهوة . خالى سيأتى الآن .
وتحرك بسرعة أذهلتنى .. كأنه كان يتمنى أن أطلب منه ذلك ليرتاح من فعل

مجاملة .. أو ربما ليتنحى جانبًا آخر ويبكى على راحته .. لا أدرى .. هل يحزن حقًا هذا السلوم ؟؟

وحدى أنظر إلى الجسد بحقد .. بكراهية .. تتفجر من عينىّ أسئلة .. ماذا لو يعود الآن ؟ هل أصرخ فى وجهه :

- لا أريد كل هذا .. لا أريد .

ثم أعلو بصوتى أكثر :

- مرة يا أبى قُلْ لا .. مرة اصفعنى كما تصفع أمى وقل لى لماذا علاماتك هابطة رغم وجود مدرسين خصوصيين .. مرة ابصق فى وجهى حين أجىء إليك وقد هشّمتُ السيارة الجديدة ! أو أتلفتُ الساعة الذهبية . لكنك أبدًا لم تفعل تنظر إلى بلا مبالاة ثم فى اليوم التالى تأتى :

- ياحمد .. خذ هذه ساعة بدل التى أتلفتها .. ثمنها ألف دينار .. هل تعجبك ؟؟

أهز رأسى . لا أبدى إعجابى ، أتمنى لو أمسك بالساعة وتواتينى الشجاعة فأخبطها فى رأسك أتمنى لو أنها غدًا صباحًا تُسرقُ من يدى .. وأحاول ذلك بنفسى .. أنزعها .. أضعها فوق طاولة النادى حيث أضيّع يومى . لكن الكلب فرّاش النادى يتبعنى بها :

- عمى حمد .. ساعتك .. نسيتها .. الله ستر . وأحمل الساعة .. أحسها ثقيلة كالزّمن الذى حولى وتبقى معى حتى أساهم فى ضياعها وأنا متأكد أن غيرها سيسجن يدى .

الساعة التى على الكوميدينو ترقص عقاربها . الوقت يمضى وأنا أرقب وجهه الأصفر وأتمنى ألاّ يعود فربما استطعت منذ الغد أن أسترد بعض ما فقدت .

أستطيع أن أفعل شيئا أحبه .. أركب « باصًا » أو « وانيتًا »[1] أو دراجة بخارية .. وأخاصم السيارات الفارهة إلى الأبد . أريد أن تبدأ حياتى من جديد ولن يأتينى صوته ثانية يوبخنى :

ـ لماذا تعاشر أبناء الفقراء ؟ وتدرس معهم ؟؟ ولن أسمع كلماته تذبح طموحاتى حين لا أحصل على نتيجة جيدة :

ـ لا يهم ياحمد . الدراسة لن تفيدك بشىء . أنت والحمد لله فى نعمة يحسدك عليها كثيرون . فتحت لك محلاً تجاريًا .. وعمارات كثيرة سجلتها باسمك تدر عليك الربح .. ورصيد لك فى البنك .. يكفيك أن تصرف فى اليوم الواحد ثلاثة آلاف دينار لسنوات طويلة .

ـ ولكن يا أبى ـ فى محاولة للاعتراض ـ أريد أن أحصل على شهادة .

ويسكتنى :

ـ التجارة شهادة .. والمال شهادة . أُنظر إلى .. هل معى شهادة .. ومع ذلك حققت لكم ولنفسى كل شىء . ثم يبتسم باستهزاء كم كرهته :

ـ خلِّ الشهادة لأولاد الفقراء .

خذ ...

ويقدم لى مفاتيح سيارته :

ـ اركب الرولز رويس .. تمشى فيها على الكورنيش ألف فتاة ستطاردك .

* * *

أمى تبكى .. أف .... هل يستحق حقًا دمعة منها ؟؟ عشرات النساء الآن متى عرفن ستحزن قلوبهن لأن أبى لن يرشهن بعد اليوم بالمال .. أما أمى فكل شىء باق لها .

ألامس كتفها بحنان :

ـ أمى .. يكفى .

وتتسارع مدائحها :

ـ كان الخير .. والبركة .. كان .. كان .. وكان ....

آه .. لا تكذبى يا أمى .. كان لا ينظر إلى وجهك المستور إلا نادرًا .. وكان يكيل لك التأنيب ، يصرخُ فى وجهك .. يضربك .. هل نسيت ؟؟ وكنت ترين أحمر الشفاه على ملابسه .. وتشمين روائح النساء الأخريات فى طيات جسده وحين سألته :

ـ ما هذا ؟؟

قال حتى دون أن يتكرم بالالتفات إلى وجهك المتسائل :

ـ « مو[٢] شغلك » .

ولم تسكتى .. بمذّلة توارثناها منك سألته :

ـ هل تعرف واحدة غيرى ؟؟

وضحك هازئًا :

ـ واحدة .. عشرًا .. أنا رجل .. وحر ..

لم تكونى يومًا ما حرّة يا أمى . كنت سجينة لهفتك على المجوهرات .. والملابس الفاخرة التى تغيظين بها أمثالك من النساء الذليلات .. بينما أشباح النساء الأخريات تلاحقك حتى فى منامك . وفى رائحة أنفاس أبى . هو رجل .. وعنده مال قارون . المال الآن كله لك يا أمى .

هزرتها :

ـ يكفى يا أمى .. أبى مات وانتهى الأمر .

وحدى أفرح .. أحس أبواب الحياة المغلقة تشرع نفسها لى .. وتدعونى أن أرتمى فى أحضان الحرية . سأترك كل شىء منذ اليوم .. سأدوس على هذا الذى يتصوره أبى نعمة .. سأتمنى بعد أن كسر سلم الأمانى تحت قدمىّ . سأحلم .. بعد أن مسح كل أحلامى .. سأذوب فى بحر الحياة بعد أن أذابنى فى حياة الترف فسبحت فيه مرغمًا بينما أصدقائى الفقراء الذين يحتقرهم صاروا أطباء ومحامين .. وصيادلة .. وكل له حرفة يمتهنها بعد أن عَرِقَ جبينه .. بعد أن حَلُمَ طويلاً .. بعد أن ركضوا وتعبوا ... هم الآن يرتاحون على بساط جهدهم وقد وصلوا ....

أصل إلى وجه أبى المسجّى . أدقّق فى ملامحه التى كستها صفرة الموت .. عيناه مسبلتان بهدوء .. فجأة : أرتعش .. أستيقظ .. فتستيقظ فى عينى دمعة كبيرة .. تكاد تخترق جدارها لكنى أحبسها .. وينتفض فى قلبى إحساس غريب .. إذن ... أبى حقًا يموت .. يرحل إلى الأبد .. هل كنت أنتظر نهاية رحلته مع الحياة لتبدأ رحلتى إليها ؟؟ أنزلق بعينى حيث يرتاح نعلاه .. لا يزالان واحدًا فوق الآخر ـ على سفر ـ أقترب بهدوء .. أنحنى أساوى النعلين .. فى تلك اللحظة .. تسقط الدمعة الكبيرة ..

* * *

---

(١) وانيتًا : سيارة شحن صغيرة .

(٢) مو : ليس .

الكبسـة

ارتدت عباءتها وأمرت كنتها :

ـ قومى يا عائشة ..

فى انكسار واضح .. نهضت عائشة ـ مسحت يديها بفوطة مبلّلة ملقاة قرب «الدّوة[1] » وتبعت أم زوجها .

* * *

فى الطريق همست أم زوجها :

ـ عسى أن يكون على يدها الشفاء .

تعثرت الكلمات على شفتى عائشة :

ـ تظنين أنه بعد هذه السنوات التسع :

شدت على كلماتها :

ـ لا تفكرى بالأمر .. «أم الشيبة» معروفة لم تقصدها واحدة وخاب أملها

ـ آه .. أنت لا تيأسين يا «خالتى»[2]

كانتا فى تلك اللحظة قد مرّتا قرب بيت «الناعوم» أطلت عجوزهم بشعرها الأحمر :

ـ صباحكم الخير..

تشاءمت المرأتان من وجهها . ردتا بالتناوب :

ـ صباح الخير..

ـ هلا .. ومرحبا ...

وبفضولها المعهود سألت :

ـ ها ! وين على الله فى هذا الصباح ؟؟

ردت الخالة :

ـ عندنا «شغل» فى السوق .

مدت ذراعها الذاوى :

ـ انتظرانى .. أحضر عباءتى .. وأجيء معكما . حين دخلت لتحضر عباءتها كانت عائشة وخالتها قد فرتا إلى زقاق جانبى .. وتوارتا عن الأنظار

* * *

قالت بصوتها الراجف ، وخطوهما لا يزال يفض بكارة صمت النهار :

ـ والله العظيم يا خالتى رأيته .. بعمرى ما رأيت هرًّا بهذا الحجم .. وقف عند عتبة الباب .. هزّ يده اليمنى وسمعته ينطق بالكلمات :

«لن تنجبى أبدًا»

قرصت خالتها ذراعها الدافئ .

ـ بَسْ : قلت لك ألف مرة .. لا ترددى هذا الكلام .. هذا جنون .. وسوسة شيطان .. أو قد يكون «الجاثوم»[٣] .

انكسرت عينا عائشة إلى الأرض . وواصلتا السير.

* * *

فتحت أم الشيبة الباب .. فهمت :

ـ أهلاً بالحبايب .. كان ودّى بهذه الزيارة من زمان ..

هَمَزَت الخالة على ركبتها وابتسمت متقربة :

ـ كلك خير وبركة .. ويدك فيها العافية إن شاء الله . ونظرت إلى عائشة وغمزت ، فتطلعت «أم الشيبة» إلى وجهها المنكسر وسألت مازحة :

ـ خائفة يتزوج خالد من امرأة أخرى ؟؟

تدخلت أم الزوج حين لمحت حزنًا يطوف بوجه كنتها :

ـ والله خالد لا ينوى الزواج .. لكنه يريد ذرية .

أكدت «أم الشيبة» وهى تهزّ رأسها :

ـ معه حق .. معه حق ..

ثم تربعت .. واستعدت :

ـ شوفى يا أم خالد .. تسع سنوات .. ولا فائدة .. هذه المرّة لن تفيد مع عائشة إلاّ زيارة امرأة نفساء ..

اعترضت أم خالد :

ـ بس يا أم الشيبة .

فهمت المرأة قصدها :

ـ لا يهم .. أنت يهّمك أن تحبل كنتك .. وأن تشمى رائحة ولدك الغالى فى ذريته .. وما عليكِ من غيرك ..

ـ لكن : حرام .. ما ذنب بنات الناس ؟؟

ثارت أم الشبية :

ـ أى ناس ! الله يهديك يا أم خالد .. سنذهب عند واحدة لا تعرفونها .

تبادلت أم خالد وكنتها النظرات .. وارتخت رموش عائشة بعدها لتحذف معها دمعة .

* * *

فى طريق العودة .. سألت خالتها .

ـ وكيف سنعرف الوالدات من غير اللواتى نعرفهن ؟

أجابت خالتها بلهفة توحى بأنها تستعجل الأمر :

ـ نسأل الناس .. ومن يدلنا نعطيه البشارة .

* * *

فى الظهيرة . دخلت الدّلالة البدوية «أم دهّاش» كعادتها تحمل بقشتها .. وتفوح منها رائحة «المحلب» .. عرضت بضاعتها .. اقتربت أم خالد تتفحص :

ـ ماذا عندك اليوم يا أم دهاش ؟

تراجفت شفة البدوية الرخوة . وأخذت تعدّد :

ـ بخور .. حلتيت .. ديرم .. علك بصرى[٤] .. و.... قاطعتها أم خالد :

ـ كل هذا لا نحتاجه اليوم ...

شهقت أم دهاش :

ـ تردّيننى خائبة يا أم خالد ؟

ضحكت أم خالد .. واقتربت منها أكثر .. وصوتها يخفت قليلاً :

ـ لا يا أم دهاش .. لكن طلبنا اليوم صعب .

خبطت البدوية على صدرها بثقة :

ـ ما يصعب شيء على أم دهاش .

ـ بارك الله فيك .. لهذا قصدتك ..

فرحت البدوية بثقة أم خالد .. وأكدت :

ـ تدلّلي يا أم خالد .. والله لو طلبت عيون دهّاش ترخص لك ..

ـ عسى عيونه سالمة .. وَعَساك بخير يا أم دهاش ..

استعجلت البدوية الطلب :

ـ ها .. طلبك ؟؟ مرادك ؟؟

استوت أم خالد فى جلستها .. فاح طعم الرجاء من كلماتها :

ـ نريد يا أم دهاش أن تقوم عائشة بزيارة لا مرأة نفساء حتى يحقق الله لها مرادها .

خبطت البدوية على صدرها :

ـ يا قلبى يا عائشة ... طال صبرها ... و ....

تلعثمت .. تهدلت شفتها وسال منها بعض اللعاب .. أكملت :

ـ لكن يا أم خالد .. هذا الأمر قد يؤذى النفساء .. أو الطفل ... وتعرفين ......

قاطعتها أم خالد مهدّئة :

ـ يا أم دهاش .. نريدها أن تدخل على واحدة لا نعرفها .. نحن لا نريد أن نؤذى من نعرفه ..

استراحت تقاطيع أم دهاش :

ـ فهمت قصدك .. أذية المعارف حرام .

أثنت أم خالد على ذكاء البدوية :

- كللك بركة يا أم دهاش .. وأنت يا «عوينتى» تدخلين كل البيوت .. وتعرفين أسرارها .. ومتى عرفت عن ولادة .. أخبرينا ...

غادرت البدوية .. طرقت الباب وراءها ...

وكان أمل جديد يطرق قلب عائشة .

* * *

هو الليل يأتى .. غلالة سوداء تنسدل تدريجيًّا على الأحياء الطيبة ، تنعس العيون .. تهجع الدجاجات فى أقفاصها .. وتخمد رائحة المواقد ، تبرد فيها أباريق الشاى ..

وعيناها .. لؤلؤتان ليليتان تنتظران زائر الليل :

- سيأتى الهر الليلة . سيقف عند الباب .. سيهزّ يده ....

لا .. لن ينطقها الليلة .. سأضربه .. سيصمت للأبد .. و .... أخذت تلاعب خصلة من شعرها .. وتعليمات أم الشيبة تتوالى فى رأسها :

- شوفى يا عائشة .. سابع يوم بعد العادة الشهرية ... تغتسلين .. و ...... و .. و ......

* * *

حفظت الدرس ...

سأغسل شعرى .. سأتركه مبللاً .. يجب أن أذهب إلى النفساء وهو كذلك ... و ...

ـ شوفى يا عائشة .. يجب أن يتقاطر ماء شعرك على فراش الوالدة .. و..
اسحبى نفسًا عميقًا ....

ـ آه ... آه ...

لم يسمع سوى الليل نهدتها المسحوبة من صدر حزين ... ورددّت فى سرها :

سيتقاطر الماء .... وإن شاء الله سوف أحمل . ابتسمت لنفسها .. وتحسّست بطنها المشدود الذى لم يحتضن بعد طفلاً .

* * *

خالتى قالت لأم دهّاش :

ـ ستكون عطايانا لك ثمينة لو حملت عائشة .

وشفة البدوية انفرجت عن أسنان متفرقة صفراء .. والفرحة نطقت بلسانها :

ـ أريد سلامتك يا أم خالد .. يا أم العطايا .. والكرم .

وردت خالتى :

ـ تستاهلين .. يا أم دهاش ..

وأنا ...

ألا أستاهل أن يكون لى طفل !! ولخالد أيضًا .. وخالتى الملهوفة على حفيد .. ألا تستاهل أن تفرح : والأهل .. والأقارب .. و ... لكن : ألن يؤذى هذا النفساء أو المولود ؟ ! ...

لا .. قالت خالتى سنذهب لواحدة لا نعرفها ......

آه .. متى تأتى أم دهاش .. ويتقرر الذهاب ؟

تحسّست فاطمة رأس الطفل .. دافئًا لا يزال ... ارتعش قلبها .. سمّت بالله ثلاثًا .. غطت سريره بطرحة من الشاش الأبيض . واستلقت على ظهرها .. وفى نفسها أمنية كبيرة : أن يحفظ الله طفلها .

من الغرفة تفوح رائحة «النفاس» حلبة .. رشاد .. و«حُسو»[٥] .. وجسد لن يستحم قبل الأربعين .. رائحة حموضة تفوح من ثوب فاطمة التى درّ حليب صدرها فبللّه .. أمها تروح وتجىء فى الغرفة ترتب المطارح والمساند .. وتقش السجادة بخفة .. قبل أن يأتى الزوار .. والمهنئين .

حين أكملت عملها التفتت إلى ابنتها :

ـ هل أرضعت الطفل ؟

جاء صوت فاطمة مشحونًا بالأسى :

ـ حاولت للمرة الثالثة .. ولم يقبل ..

ـ ألا تزال حرارته مرتفعة ؟ !

ـ نعم .. وقد أفرغ كل الحليب الذى رضعه هذا الفجر ..

اقتربت أمها .. جسّت جبهة الصغير ، نظرت لا بنتها فى محاولة لتطمينها :

ـ لا تقلقى .. ليس له إلاّ العافية .. ثم اتجهت نحو باب الغرفة .. يتباعد صوتها معها :

ـ سأعدّ لك «عصيدتك»[٦] تأكلينها قبل أن يأتى أحد

قبل أن تكمل جملتها كانت يد تطرق باب البيت .

* * *

دخلت أم دهاش .. تتبعها عائشة بخطى مرتجفة . رحبت أم فاطمة بالدلاّلة

بحرارة تعودتها .. ومدت أطراف أصابعها إلى عائشة بينما ينطلق سؤال من عينيها لأم دهاش «من هذه ؟»

وضّحت أم دهاش حين فهمت سر النظرة : ... قابلتها فى السوق . تبحث عني .. لها عندى حاجات .. طلبت منها أن ترافقنى لأطمئن عليكم ما دمت قريبة من البيت ..

واستدارت لعائشة لتؤكد :

ـ حبيبة ... ... وبنت ناس ...

رحبت أم فاطمة ببنت الناس :

ـ يا هلا .. ومرحبا .. تفضلا ..

لكن شكًا لاح من عينيها .. واشتعل وسواس حارق فى فؤادها .. فتعوّذت من الشيطان ثلاثًا . كانت أم دهاش تسبقها إلى غرفة فاطمة . وعائشة تتبعها بتثاقل .. ووجل ..

ـ بسم الله الرحمن الرحيم ...

بسملت أم دهاش وهى تضع قدمها اليمنى عند عتبة الباب .. وهكذا فعلت عائشة ..

اخترقت الرائحة صدرها .. وتمنت :

ـ متى تفوح عندنا مثل هذه الرائحة ؟؟

* * *

مالت الدلالة على رأس فاطمة .. قبلته .. وابتعدت لتقرّب عائشة .. تفعل ما فعلته رغم عدم معرفتها بالمرأة ..

«يجب أن يتقاطر ماء شعرك على الوالدة حتى ......» وانسدلت جديلتان رفيعتان .. امتدتا كنهرين يضيقان عند مصبهما و .. تقاطر الماء .....
تنفست أم دهاش بارتياح .....

ـ تفضلا ..

دعتهما أم فاطمة للجلوس لكن أم دهاش اعتذرت :

ـ أنا مستعجلة .. وعائشة لها عندى بعض حاجات و .....

نقلت بصرها بين وجه أم فاطمة التى تقف وسط الغرفة ووجه عائشة خشية أن يكون انفعال ما قد رفّ على وجه العاقر.

حين اطمأنت .. التفتت إلى فاطمة فى مرقدها :

ـ لا إله إلاّ الله .. أنت اليوم أحسن من الأمس . سحبت عائشة مودّعة .. ورافقتهما أم فاطمة إلى الباب .. وما أن عادت حتى أشعلت البخور ، وأخذت تدور فى الحجرة .. تُبسمل .. وتتعوّذ من الشيطان .

* * *

مات الطفل ...

بعد ثلاثة أيام من زيارة عائشة وأم دهاش .. ظلت حرارته مرتفعة .. ورفض صدر أمه .. حتى ودّع فى ذلك الصباح ..

أم فاطمة حلفت أمام النساء المواسيات بأن الطفل كان بصحة جيدة .. حتى دخول أم دهاش ورفيقتها . وبكت فاطمة بحرارة :

ـ حسدته المرأة ..

وانبرى صوت إحدى الحاضرات :

ـ هل تعرفون تلك المرأة ؟؟

ردت أم فاطمة بأسف :

ـ لا والله .. ليتني أخذت من أثرها ...

وألحت المرأة :

ـ إوصفيها لى يا أم فاطمة .. فقد أعرفها ..

ووصفت أم فاطمة المرأة .. طولها .. لون بشرتها .. و.. كأنها تذكرت :

ـ وعلى جبينها شامة كبيرة ناتئة .

وشهقت المرأة :

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل .. هذه عائشة كنة أم خالد .. وهى عاقر ..

ثم التفتت لفاطمة مستفسرة :

ـ هل انحنت عليك ؟؟ هل تقاطر ماء شعرها على صدرك ؟ هل سحبت نفسًا عميقًا ؟؟

هزت فاطمة رأسها بالإيجاب فانحدرت الدمعة الواقفة على وجنتها ..

وتنهدت المرأة :

ـ ياويلها من الله .. لقد كبَسَتْكِ .

وصرخت أم فاطمة :

ـ ياويلها .. ويا ويلك .. منى يا بدوية النحس .

* * *

لم تعد أم فاطمة تفكر بالطفل الذى مات .. انصب كل همّها .. وتفكيرها

بالطريقة التى تفك بها الكبسة عن فاطمة .. التى قد لا ترى وجه طفل بعد اليوم .
قالت تخاطب نفسها :

ـ غدًا .. أذهب عند «أم الشيبة» عندها يكون الحل .. والدواء .

* * *

(١) الدوّة : منقل الفحم .
(٢) خالتى : أم الزوج فى منطقة الخليج تدعى خالة .
(٣) الجاثوم : الكابوس .
(٤) حلتيت ، ديرم ، علك : أشياء تستخدم قديمًا .
(٥) حسو : دواء خاص للنفساء .
(٦) عصيدة : طعام يصنع خصيصًا للمرأة النفساء وكذلك «القبّوط» وتكثر فيهما الحلبة .
الكبسة : هى الهجمة فجأة .. و «المكابيس» الذين يكثرون كبس بيوت الناس . و «المكبس» من يقتحم الناس «فيكبسهم» .
عن كتاب : مع ذكرياتنا الكويتية : المؤلف : أيوب حسين .

الشمس وضحاها ..

سبق ذهنى جسدى إلى هناك .. شوق عارم أحاطنى وضيّق علىّ . كنت قد اعتقدت بأن العاطفة التى بيننا قد اهترأت .. وأن ذلك الهجر الطويل الذى فرضه علىّ قد وأد كل عاطفة ممكنة .. لكننى فى اللحظة التى فكرت فيها أن أفِرَّ ـ أن أهرب حاملة كل الشجن . أن أحرث كل التراكمات المزروعة حول أيامى ، المحيطة بحياتى كأشجار غابات .. جافة تخدشنى أفرعها .. وتزوينى سيقانها تحت أكوام الأوراق المتساقطة . اليوم ... سأفرغ الشحنة .. سأجعل عواطفى المخبوءة تحت جلدى تنطلق .. سأتمرد على الركود والبلادة .. سأمسح الوجع الذى استفحل دون رحمة .. سأهب كشرارة تعرف أين تسقط أين تضىء .. هناك .. ذهنى يسبق جسدى .. أتبعه آكل المسافات .. قدماى طائرتان .. ولى أجنحة قوية ودون أن أدرى كيف وصلت .. وجدتنى أمام الباب المهجور .

أولجت المفتاح بثقب الباب .. لم أجد صعوبة فى ذلك رغم أن الأشياء إن هُجِرَتْ تصدأ .. كأن الثقب ولهان .. محتاجًا لعناق .. منتظرًا للحظة كهذه ، حينَ لويت المفتاح أصدر أنينًا كأنه يستغيث .. كأنه يتألم .. كأنه يهمس : إننى

عاتب عليك ... لقد هجرتنى طويلاً .

حين دلفت بوجهى كان الظلام يحيط بالمكان .. فى الخارج شمس تسبِّح الله .. وتضىء .. وهنا .. الظلام محدّق بإصرار .. يدى تتحسس مكان النور .. تلقاه كأنه ينتظر .. فجأة ! شع الضياء .. فاحت رائحة الأشياء عطور عشق قديم ، وذكريات مبعثرة .. وتواريخ مدوّنة على كل وجه .. روائح ألم قديم عشته .. تحسسته داخل صدرى .. وتحت جلدى .. ألم أحببته ، وأحبه .. جئت لأجل أن أجدد ولائى له .. استنجدُ به أن يعود .. ويلا صقنى ليُحرك البركة الآسنة ، لأعرف طعم اللحظة التى تنخر فى لحمى .. وتنطلق بعد ذلك إيحاءات وحركات .. وتعابير.

ارتميت على الأريكة التى لا تزال تحمل رائحتى منذ آخر مرة ، احتوتنى .. حضن أمى أريكتى .. تنعش مفاصلى .. أسترخى عليها .. أبللّها بعرقى .. وأريح رأسى .. أترك الحرية لعينى تدوران .. تمارسان هواية السفر هنا .. وهناك .. تطلعت إلى الحوائط تبتسم .. كلها تبتسم .. فجأة نبتت لها عيون ، وثغور .. وأسنان .. وآذان مترقبة .. وأذرع تمتد .. تعانقنى .. ذراع يرمينى بعد إفراز شوقه لذراع .. وصدر يروينى ثم يهدينى لصدر .. الحوائط لا مكان فارغا فيها .. كل أحلامى .. وذكرياتى .. حكاياتى الطفلة التافهة .. الجادة .. كلها عليها .. وأوجه كثيرة .. يتلاعب فوقها الضوء . بعضها يحمل فرحه .. وبعضها مكتئب لا يزال تحت وطأة الحزن .. وجه أمى الذى لم يعش طويلاً .. وجه جدتى التى كانت حانية .. ووجه ريما الطفلة التى كانت ترتاح على ركبتى فى طريق العودة من المدرسة .. كانت السيارة تضيق بنا .. وببنات الجيران اللآتى كنا نصطحبهن معنا لنوصلهن إلى بيوتهن .

وجه ريما وحده ظل فى ذاكرتى .. كنت أيامها بعد صغيرة لكن حلمى ظل يتلاعب بالمرج المتفتح..حين أكبر وأتزوج..سأنجب طفلة مثل ريما .. نشبهها .. وسأسميها باسمها . وريما اختفت فجأة ! غادرت وأهلها إلى بلدة أخرى .. وظل وجهها موشومًا فى ذهنى .. هو ذا .. أمامى الآن .. يالوعة الذكرى ... وجهها أيضًا يبتسم .. يحضن وجهى كأنه يرحب به وكل شىء على الحوائط مما فاضت به روحى من معان . وبكل ما جادت به ريشتى من لمسات .. كله يبتسم يدعونى أن أتحرك .. أن أمنح خيالى أجازة .. وأسوح فى بحر واسع ألتقط منه .. وأرسم ... أسجل كل الأحداث التى مرت طيلة السنوات التى هجرت فيها مرسمى .. أضيف لتاريخى القديم تواريخ وأشكالاً .. هو ذا بيتنا القديم ـ قلعة زندا ـ ذلك هو الشباك الوحيد الصغير المطل إلى الشارع .. كان ذات يوم نافذة الجنة التى رأيت فيها وجه كريم .. فى تلك القلعة الصلبة .. عرف قلبى الحب .. وسجل كل لحظاته هنا .

تولد الذكريات .. أرتعش .. فى مقعدى ظللت مسترخية . شبه صداع بدأ يحبو من أسفل الرأس .. يتسرب شيئًا فشيئًا .. الوحدة المحيطة بى لها صوت .. أسمعه أنتشى قليلاً .. هذه الوحدة ملاذى .. إنها ترحب بى .. فلم لا أستغلّها .. أن أفعل شيئًا .. قفزت .. سحبت فرشاتى .. ووعاء الألوان .. استعرضت اللوحات المعلقة على الجدران .. أين أجد مكانًا لأمارس عليه رغبتى ؟؟ .. عيناى اصطدمتا بوجه العجوز .. وجه رأيته يومًا ما عند باب الجامع ، كنتُ أحمل «روبيتى» اليتيمة هارعة إلى دكان السيد لشراء بعض الحاجات الخفيفة .. لمحتها عند حائط المسجد متكومة . عيناها البارزتا الجفون وماؤهُما الأزرق الذى أعلن وفاة الشباب فيهما أخافتانى ، يدها تشد على فمها بطرف

عباءتها الممزقة .. حين قدمت لها الروبية وسحبت يدها بان فمها الأدرد إلا من نابين صفراوين . ولسان أحمر عريض .. نظرت إلى الروبية .. تحسستها ثم ألقت بها وصرخت فى وجهى :

ـ تسخرين منى .. تعطينى حديدة .

هلع قلبي .. ابتعدت بعد أن انتشلت الروبية التى انغرس نصفها فى التراب . هرولت مبتعدة ووجهها قد حط فى رأسي .. دك نفسه بعنف واستقر رغم كل محاولاتى أن ألفظه .. كنت أخشى أن يزورنى فى الليل ويفسد على راحتى .. لكنه ظل حيا .. ولم أتخلص منه إلاّ حين قذفته ريشتى إلى اللوحة .. وجه أكرهه .. لذلك أمسكت باللوحة التى تحمله .. أنزلتها إلى الأرض ، علقت لوحة خشبية .. جهزت الألوان .. أى لون ؟؟؟ فى الخارج . ينتشر الضحى .. وشمس الضحى جميلة . لا هى نار موقدة .. ولا لوح ثلج .. لا هى قاسية .. ولا حانية كل الحنو .. لا هى غاضبة .. ولا مبتسمة .. شمس لا تعرف الكدر ولا اليأس عروس تجمع حولها الوالهات إليها .. إلى ـ شاى الضحى ـ جلسات المودة ، والهرب من متاعب كثيرة .. حلقات .. وأحاديث يصير فيها الضحى كأمسية سمر .. والضحكات ثغور نجوم وابتسامات قمر .. ضوء شمس الضحى يتسرب إلى روحى المظلمة .. إلى أزقتها الموحشة .. اللون الأبيض . هكذا قررت ... ومسحت على وجه اللوحة . صار الفضاء أمامى ناصعًا بلون قلب مولود لم تصفعه الأيام .. شيء من الأزرق الفاتح .. مسحة قليلة .. وشمس الضحى تتربع فى قلب النهار .. أبتعد .. أتأمل اللوحة .. كأن الشمس فيها ترقص .. اللوحة كلها تتحرك بين يدى وأنا أعود إليها أفرغ لمسات ولهى وعشق

عليها . ينتقل صفاؤها إليّ . أحسه يطحن أطنان العذاب التى حملتها معى وأتيت هاربة من لحظة جداله المر .

ـ أين ستذهبين ؟؟

ـ صديقة عزمتنى على «شاى الضحى» .

ـ تقصدين شاى النميمة والنقد اللاذع .

ـ سَمّه كما تشاء .

ـ لكنك تكرهين إضاعة الوقت !

ـ لقد ضاع عمرى .. ما يهمنى لو ضاع الوقت ؟؟

عيناه انغرزتا فى وجهى . تتساويان وعينى نمر يلهث وراء فريسة .. وأنا الفريسة التى وافتها أنفاسها أخيرًا .. وشجاعتها لتقرر أن تبدأ من جديد .. تتحرك .. تخرج .. لكن صوته الكالح شق أذنى :

ـ إذا طلبت منك ألاّ تخرجى ...

ـ سأرفض طلبك .

ـ وإن رجوتك ؟؟

ـ سأهمل الرجاء ..

ـ وإن أمرتك ...

ـ سأعصى الأمر ...

ـ وإن استخدمت سلطتى عليك ؟

ـ سألعن سلطتك .. وسأكسر قيودى .

ـ تتحدينى !

ـ بل أتحدى ضعفى .. لقد مللت .. لقد اكتفيت .

فاض على وجهه استغراب .. هو لا يصدق أن الفريسة التى فاضت روحها منذ سنوات طويلة تعود لها الروح .. أنا نفسى لم أكن أصدق . كيف وُلدَ هذا التحدى بداخلى ؟ كيف نما دون أن أشعر به .. وكيف تؤاتيه الشجاعة أن يتحرك معى .. بهذا العنف ، يستفزنى فأهاجمه وكأننى صرت الحيوان الكاسر ، وصار هو الأرنب المرتجف .

ـ لو خرجت تكونين طالقًا بالثلاث .

ـ آه كم تمنيت أن تطلق روحى .

ـ أو .. أقتلك

استدرت إليه بكل القرف الذى أحسه . خاطبته :

ـ هل تظن أنك بعد لم تفعل ؟؟ لقد قتلت الفرح بداخلى ! عرّيت أشجارى الخضراء .. حوّلت زمنى خريفًا دائم الصفرة .. حرمت وجه النهار أن يصافح وجهى .. وشمس الضحى أن تـدفئ أطرافى .. سأخرج .. لن يردنى اليوم شىء .. لن أهتم لما سيثار ويقال .. لقد اكتفيت .

لم ألو على شىء .. كان بداخلى سعادة ولدت ليلة البارحة حين تهادى صوته المغترب منذ زمن .. استيقظ النوم فى كيانى .. كريم يعود فى الوقت المناسب .. كأنه يطرق باب القلعة التى صدأ كل شىء فيها .. بما فى ذلك قلبى .

كيف جاء ؟؟ ولماذا جاء ؟؟ كيف نبع صوته فجأة يتحدى كل الركود كأنه يلقى بالحجر الثقيل فى بحيرتى الراكدة فيتناثر ماؤها كأنه يقذف سهمًا إلى قلبى المتخشب آمرًا إياه أن يصرخ .. أن يتمرد .. أن يرقص .. أن يطمح إلى لحظة يتكسّر فيها جليده .

فكرت ليلة البارحة : هل أبدأ من جديد ؟؟ هل أكسر قيودى التى تورمت منها كل السنوات الماضيات ؟ ! منذ تركت بيت أبى ـ قلعة زندا ـ متصورّة أن لا قلاع غيرها .. واخترت أن أوافق أبى الذى قال مواسيًا :

ـ هو كبير فى السن . لكن «الشايب» يدلّل .

ارتضيت أن أخرج من القلعة .. ماكان يهمنى إن كان عجوزًا يدلل .. أو شابًا يعلل قلبى .. كنت أريد أن أجرب نوعًا من الحرية .. بعد أن حرمتنى حصون القلعة من وجه كريم .. يوم عرف أبى أن النافذة الوحيدة قد صارت تأتى منها نسائم الحب .. أتسلق السلم .. أطل منها أتحاور مع كريم فى عزّ القيلولة .. أهديه رسائلى .. ويهدينى رسائله .. ومنذ عرف والدى . قرر أن يكمل سجنى .. أن يتخلص منى .. أن يهدينى بعقد زواج إلى رجل يكبرنى .. وله أبناء بعمرى .. وقد ودعت أمهم الحياة فى كنفه .. وبقى هو رابضًا رغم أمراض العرين .

قلعةِ زندا أخرى زفت إليها نفسى راضية .. وقد حسبت أن القلاع كلها قد اندثرت ! هكذا كان علىّ أن أبدأ .. أحمل موهبتى .. ألوانى .... ريشاتى .. وأعلن له بكل الذل :

ـ هل أستطيع ممارسة عشقى ؟؟

وبشفتين لزجتين قرر كأنه يمنحنى صك السعادة :

ـ تستطيعين .. ولكن ! !

عقدة حسبتها لن تفك .. لكنه تابع :

ـ رائحة الألوان .. تزعجنى ..

أردت أن أثير شفقته :

ـ سأحس بالضيق .. وقد تعودت أن ....

هز كفّه المجعّد :

ـ طيب .. فى مكان آخر سأجهز لك مرسمًا .

فى تلك اللحظة فقط شعرت نحوه بالحب .. تهلل وجهى :

ـ أين ؟؟

ـ فى العمارة ...... فى منطقة .... سأخصص لك شقة لفوضاك .. وروائح ألوانك .. و ...

شكرته .. دفعت ثمن عطفه لحظة أحققها له .. لا أحس بها لكنه يحتاجها .. وجهّز لى المكان .. كنت أخرج إليه كل يوم .. أمارس أمومتى المفتقدة على اللوحات . وأستجمع الذكريات .. والوجوه ... أحقق لها عودة إلى الحياة .. بعد أن ربضت تحت تراب السنين .

ليلة البارحة كانت قاسية .. أحسست شيئًا كالملح يتراكم داخل حلقى .. فقدت معه كل شهية لاستقبال الصباح .. وددت لو يمط الليل رداءه .. أن يبقى رغم وحشته أن يتركنى فى سبات . طويل .. ربما فى الإغفاء بعض الراحة .. فى حضن الليل نستطيع أن نفكر .. أن نحلم .. أن نقرر دون أن تكون هناك يد تغتال أحلامنا .. أو تقنص قراراتنا .

صوت كريم الذى تهادى إلى سمعى بعد هذا الموات يدعونى للحياة .. يوحى لى بأن شيئًا ما عذبًا يتدفق إلى شرايينى .. إن دقته تبادر إلى جوف القلب .. تهزّه تبلّله بالندى .. أرتعش .. أحسّ أنه لا يزال ذلك الطفل الرقيق الذى تهز عرش صمته دغدغة .. إنه لا يزال برغم كل الثقل الموهن الرازح ، قادرًا على أن يرقص .. أن يميل .. أن يرتاح إذ يلمح عينًا تسلط عليه نظرة حانية أو ثغرًا

يشتهى أن يطبع قبلة ما على خدّه الأحمر ! قلبى يستفيق .. منذ تهادى صوت كريم .. وكنت لا أصدق :

ـ أنت ! ؟

ـ نعم .. أنا ..

ـ ما الذى جاء بك ؟؟

ـ أشعر أنك بانتظار لحظة كهذه .

تصارعت هتافات بداخلى .. هل أقول نعم ! هل أرفض ! هل أنطلق إليه بكل الحاجة التى أحسها ؟ أم أبقى ذلك الشىء الواهن المعلق ما بين الحياة والموت ؟؟ هل أجد ميلادى ؟ أم أفتح قبرًا لسعادة تأتى وأنا فى أمسّ الحاجة إليها ! كيف جاء كريم .. ولماذا اتصل ؟ كان الزمن نهرًا يفصلنا .. نهرًا غرقت فيه مع رجل استكثر على الوعد .. وحرمنى بعد ذلك من مرسمى وسجن شهيتى للحياة داخل قلعته .. فنسيت أشكال الوجوه المعلقة .. وتضاريس البيوت القديمة .. حتى بيتنا الطينىّ القديم الذى كان قبل أن يبنى أبى القلعة . فهل أغامر ؟؟ .... هل أقذف بجسدى إلى النهر ؟؟ هل ألحق بكريم الذى أحس به شرارة الحياة وقد توقدت لتضىء ؟

ليلة بائسة مررت بها .. تقاذفتنى النداءات والصراعات . على أن أقرر .. أن أختار .. أن أكون شجاعة ولو لمرّة واحدة : أن أرفض هذا التحجر الذى حاوط حياتى .. أن أرفض رجلاً لا يعطينى شيئًا .. يقتل كل رغباتى .. يحرمنى صداح النهار .. ومتعة الليل .. يحرمنى أن أكون امرأة .. لها الحق فى أن تكون لها احتياجات وأن تحقق تلك الاحتياجات .. علىّ أن أحرك السكون أن لا أكون

مجرد حفيف ورقة فى قلعة نائية ... يجب أن أكون شجرة .... أن أكون شمس ضحى مشرقة .

* * *

حين دخلت روحى عمق الليل .. ونامت .. لم أكن قد وصلت إلى قرار .. لكننى فى الصباح فوجئت بنفسى .. بالشجاعة التى حركتنى .. فرفضت أن أرضخ له .. أول ما فكرت به هو أن أهرب إلى مرسمى .. إلى ذكرياتى .. إلى الماضى الذى سجلته على الجدران التى تفرح بلقائى .. ثم أن أذهب إلى موعد كريم الذى حدده .. أن أرتمى على صدره .. أن أبكى .. أبكى ... وأعلن له :

- أحبك .. بكل العنف الذى يمزقنى ... أحبك .. بكل العذاب الذى أماتنى .. أحبك .. برغم نهر الزمن الفاصل .

وبعد أن أسمع دقة قلبه . تعلن الفرح .. سأترك خيول الصمت تنطلق .. سأعلن له :

- نعم .. أنا امرأة وحيدة .. أنا امرأة تحتاج إليك .. تريدك .. تريد كل الحياة التى يمكن أن تفجرّها حولها .. وبداخلها .. وبأعطافها الراقدة .. الموحشة .. نعم ياكريم أنا امرأة فى الريح وحدى .. وأنت : أريدك الرجل ... البيت ... العشق الذى يروينى فقد جفت شرايينى .. تآكلت رغباتى .. وحدك أنت ستعيد كل شىء .

حين تركته قابعًا فى الفراش .. تلجمه مفاجأة التمرد .. لم أحس بأى شعور بالذنب تجاهه . لقد أعطيته من عمرى ما يكفى .. وأخذ من عمرى ما يزيد ..

وقبل فوات الأوان يجب أن أحتفل بميلاد شمس جديدة .

غُصْتُ فى ضوضاء النهار .. انني أحسها لأول مرة .. وجئت إلى مرسمى .. أرسم شمس الضحى .. وأعلن لها أنها بداخلى تولد .. تنفجر .. وحين اكتملت أمامى نفضت الريشة .. آويتها قرب علبة الألوان .. ودعتُ كل الوجوه .. كل الجدران ..ودعت أريكتى الوحيدة .. أسلمتها رائحتى .. وخرجت .. أزف نفسى لموعد كريم .

نسيتُ أننى هجرت بيتى فى الصباح .. نسيت وجه زوجى المتكوم بعضه على بعض .. نسيت تهديده .. نسيت أن أسأل كريم إن كان قد عاد ليحقق أملاً خابَ أبى .. وخبتُ .. وخاب زوجى أن يحققه لى ... كل ماكان يُهمنى أن أنطلق .. أن أحمل مفتاح مرسمى الذى حرمنى منه .. أن أدخل المفتاح المشتاق إلى الثقب المهجور ، وأتنفس رائحة ألوانى ... وأرسم شمسًا تشرق من جديد .. ثم أهرع إلى كريم .. أعيد الانتعاش إلى روحى التى وارى فرحها تحت الجروح والحرمان . أن أبدأ من جديد . أترك للعشق أن يدخل من الأبواب المشرعة .. أن يعيدنى إلى ساحة الفرح .

فى صالة الفندق الكبيرة بحثت عنه .. قال إنه سيكون بانتظارى .. حدد لى ساعة معينة : انتبهت إلى أننى ألغيت الزمن حين ارتميت فى أحضان المرسم .. نظرت إلى الساعة ... ياه .. موعدنا كان فى العاشرة .. الوقت الآن الواحدة والنصف ! كيف مضى الوقت ؟؟ .

* * *

تلفت .. جالت عيناى تستعرض الوجوه وجهًا وجهًا . لا ... لا وجه بين الوجوه هو وجه كريم .. لابد أن أسأل .

واقتربت من موظف الاستعلامات ؟ ابتسم .. لا أدرى لماذا ابتسم .. التفت وراءه .. يده على ذقنه .. وهو يتابع أرقام الغرف .. عند الرقم ٥٠٣ كانت ورقة صغيرة ترقد بجانب المفتاح . استلها بأنامل رفيعة قدمها لى :

ـ انتظرك .. ثم ترك لك هذه الورقة .

ـ أين ذهب ؟؟

ـ غادر إلى مقر عمله فى لندن . كان قد جاء ليوم واحد !

شقنى سيف حاد .. ترنحت قدماى .. جف بحلقى كل بلل . تهاويت على أقرب مقعد .. فتحت الورقة .. لطمتنى الكلمات القليلة .. تبدو حانية .. صادقة .. كان يَودْ ... كان يَوَدْ .. كان يَوَدْ .. .. وأنا التى تأخرت .... أنا التى ذهبت لأرسم شمس الضحى المشرقة .. وشمس الفجر الذى تنفست فيه أخيرًا ..... أنا التى انتظرها أخيرًا ليراها بعد تلك السنوات الطويلة .. ليعرف ظروفها ليضعها فى قلبه .. الذى لا زال يحمل وجهها ويحفظ رسائلها أنا التى تمنى أن تهجر كل شىء عداه .. وتأتيه بنفس كمية الشوق التى يحملها .. وأنا .. حملت نفسى إلى هناك وأضعت الفرصة .. خيبة جديدة تصفعنى فى أول نهار تُشرق فيه شجاعتى .

ثانية .. عدت إلى مرسمى خائبة ... كل شىء معتم .. الوجوه على الحوائط عمياء .. بلا عيون .. جدعاء بلا آذان خرساء بلا ثغور ولا ألسنة .. ولا شىء يرحب بى .. تهاويت على المقعد الذى ودّع جسدى قبل زمن قصير . شعرت

وكأن دبابيس قد نبتت فى جوفه .. تطلعت إلى اللوحة التى لا زال عرقها طريا .. أين الشمس التى رسمتها ! كان الضحى .. ذلك الفضاء الناصع قد ارتدى ثوب حداد ، والشمس صارت قمرًا ذابلاً تتقاطر من وجهه دموع .. سالت .. وأغرقت اللوحة .

بدأ المكان يضيق .. يضيق .. أحس بأننى خيط .. رفيع .. تهزه ريح صَرْصَر .. وأمامى ثقب الإبرة إما أن أندفع إليه .. وأدخل .. أو .. أبقى هكذا معلقة فى الهواء .

هل أستطيع أن أبلل نفس وأنفذ من الثقب ؟ هل حقًا أنا قادرة على أن أحدّد معالم الطريق لأعود إلى الثقب وأدخل نفسى فيه ؟؟؟

لا الشمس وضحاها قادرتان على منح بصيص من النور .. ولا الشبابيك المغلقة المرتدية حزنها تسمح بخيط نور يقتحم المكان .

أغمض عينى .... بداخلها كان وجه العجوز الأدرد .... وكان وجه ريما ،

* * *

روبيق : الروبية ـ العملة الكويتية القديمة ،

المدينة .. الحلم ..

انتهت رحلة السير، اللهاث ، والتعب .. والآن .. انظر هناك .. ستبدأ رحلة اكتشاف لهاتين المدينتين المتنافرتيْن ..

سَجِّل تاريخ البدء .

ذات يوم سجلت التاريخ الذى أحببتك فيه .. كم مضى من الأيام .. الشهور .. والسنوات ؟؟ لا تقلق فمازلت أحبك .. وما أزال رفيقة الدّرب والرحلة .. أثق الآن أنك من يستحق أن يشاركنى هذا السفر الطويل ومتعة الاكتشاف .

حين نعود .. سنحكى لناسنا أحلى القصص .. قد يصدقون .. ثم يحاولون الارتحال حيث رحلنا .. فالتجربة متعة .. هل تعرف ما الذى سيحدث بعدها ؟؟

لا تندهش . صدقنى .. ستحدث الفُرقة .. سيتقاتلون . ما علينا الآن .. ها نحن نقترب .. انظر هناك .

* * *

المدينتان تلوحان ..

- هل أنت خائف ؟
- أجهل ماذا هناك .. والجهل أبٌ للخوف .
- معى ، لا تخشى شيئًا .. سأسّليك .. سأقدحُ زناد الذاكرة تنتفضُ سنوات الطفولة .. والصِّبا التى أحسها مَرّةً .. كزخة الماء البارد حين تشتد حرارة العالم حولى .. فأستدرّها .. أتبلل بها .. وَمرَّةً أُحسها كالسوط تجلد ضلوعى .. تعذّبنى .. فأتمنى لو بُحتُ لها حتى للهواء .. وحين أُهِمُّ بذلك .. أتراجع .. أخشى أن تفرَّ مع الريح الصارخة إذا انفلتت من سجنها الدفىء . أن تخاصم ذاكرتى ولا تعود ..

هى فرصتى الآن وأنت معى .. أن أسجلها هنا .. عندك .. فهل تملك ذاكرة قويّة ؟؟ .

- يشهدون لى بذلك .
- إذًا .. اتفقنا . لوفقدتنى يومًا فاستخرج هذه الحكايات . حدّث الناس بها .. أحب أن يعرفوا كل شىء . انظر ..
- ماذا هناك بالضبط ؟؟
- ستعرف كل شىء .. هنا .. وهناك .. بعدها ستختار أين تنام .. وتبقى .. وتعيش .. فلا تسأل قبل أن تخطو الخطوة الأولى .

* * *

«حين خَطَتْ قدماى خطوتها الأولى .. دُستُ على موقد النار فى بيتنا الهادئ . فى ذلك الحى الذى دفنوه الآن تحت هياكل الأبنية الحديثة المترفة . لقد قتلوا كل ذكرياتنا .. وماضينا .. لم يتركوا لنا شيئًا .. نهبوا حكاياتنا المرشوشة

على الجدران .. وأحرقوا بقايا البخور الذى كان يفوح فى ليالى الأعراس .. والأعياد . دفنوا مواقدنا التى لم أكرهها حتى عندما أحرقت نارها قدمىّ الناعمتين .

يومها ربطت أمى قدمىّ بالخُرق البالية الملونة .. بضع فضلات من أقمشة تخيطها للجيران والأحباب .

كانت على موعد لتقيس لأحداهن .. حملت «بقشة» الثياب ونظرت إلى وجهى . قالت بحسرة :

ـ المسافة بعيدة ..

ـ أبقى فى البيت يا أمى ..

ـ وحدك : لا ..

هلعت أمى .. ثم قالت بحزن :

ـ سأضطر لحملك كل الطريق .

خيلّ إلىّ أننى أحببتها كثيرًا تلك اللحظة . وأشفقت على جسدها النحيل من أن يحملنى حتى وإن كنتُ طفلة تزحف نحو سنواتها الست .

قلتُ لها :

ـ دعينى أمشى .. لا يؤملنى الحرق .

وكأننى سمعتها تهمس :

ـ بعض الألم يعيق الخطو .

وكأننى صرخت فى داخلى :

ـ لا .. بل الألم يدفع إلى الجرى .. كلما دسنا على موضع الألم قتلناه .. ومات

الإحساس به ، فنمشي .. لا نكترث .. وسأمشي هذا الطريق .

لكنَّ كتف أمي حملني .. وحين وصلنا أنزلتني وقالت هامسة :

ـ أرجو ألاّ يعوقك الله يومًا .

* * *

أنظر إليك الآن .. قدماي صلبتان .. أنت بانتظار الخطوة الأولى .. إلى المدينة الأولى .. ثم الثانية .. وأنت معي .. رضيت أن ترافقني .. أن تحبني .. لا يضيرك أن تجازف .. وتتسلى بالطبع .. سأَفُكُّ عقدة لساني .. قلت لك سأحدثك عن سنوات مرّت وسيكون الطريق أمامك قصيرًا .. ممتعًا .

هو ذا الطريق .. المدينتان تلوحان .. متناقضتين ، والخطوة الأولى .. كخطوة الصبا المنتعشة أيام الربيع .

* * *

«أيام الصبا أحببت لأول مرة . كنت بعد لا أعرف كيف أتعامل مع الرجل الذي أحبه .. نظرات .. خجل .. ثم نظرات .. وابتسام .. ثم نظرات .. ولقاء أصابع مرتجفة .. ثم نظرات ورسائل قصيرة ملونة أشتري ورقها من مصروفي المدرسي وأدسها في يده كلما التقينا .. ثم نظرات .. وأمنيات تداعب القلب .. والجسد أن يرتمي في أحضان الحبيب ليدخل التجربة الأولى .. ويتعرف على الحب بشكله الآخر . لكن المستحيل كان .. أين نلتقي ؟ وكيف ؟ ومتى ؟ وعيون الناس كلها تدَّخِر لحظاتها لترصد .

فشلت في أن أكون حبيبة كاملة .. والرجل يريد .. وأنا لا يهمني .. فالقلب

الصغير يحب مرات .. ومرات .. وحين يكبر يحب مرة واحدة فتكون التابوت الأبدى» .

ـ ما بالك تنظر إلىّ هكذا ؟؟

ـ تقولين أن الحب هو التابوت الأبدى ! !

ـ أحببتك أنت .. تلك هى المرة النهائية .. أعنى .. أموت وأنا لك وحدك .. أنت الأبد بالنسبة لى .. هل غضبت ؟؟ .

ـ لا .. ولكن كانت تلزمك بعض النصائح وأنت صبيّة ..

ـ كانت أمى تفعل ذلك .. تلالُ النصائح والتوجيهات تتراكم فى رأسى .. أكرهها .. أضيق بها .. وعندما كبرت اكتشفت أننى قد استفدت من تلال الحب التى كنت أتصورها تلال حصار لأهوائى ورغباتى . وأمنياتى الخضراء .

فشلت فى أول حب .. عشت على أمل أن أحب للمرة الثانية ، الثالثة ، الرابعة ، حتى يجهز التابوت ..

ـ مصرّة أنت على التابوت كأنك ميتة .

«أول مرة رأيت فيها ميتًا ممددًا على الخشبة المبللة بالماء .. كان ذلك حين عدت من المدرسة .. رأيت شارعنا يغص بالرجال .. وبالحزن .. وحين أردت أن أقطع الطريق إلى بيتنا نادى باسمى أحد الجيران :

ـ اذهبى من الناحية الأخرى .

لكن الفضول دفعنى إلى أن أسد أذنى .. مددت خطوى واقتربت .. فاجأتنى جثة جارنا على الحامل الخشبى .. أصابتنى زعدة ما صحوت منها إلاّ حين

صفعنى كف الرجل الذى أمرنى بأن أبتعد .. صرخ فى وجهى :

ـ ألمْ أقل لك اذهبى من النّاحية الأخرى ، هيا إلى بيتكم . لكن القدم لم تحملنى .. والرعدة المسعورة انتهكت صمت كل شىء فى داخلى .. أشفق علىّ الرجل .. وحملنى .. لم أكن طفلة يومها .. فكان لذاك الحمل تأثير على جسد الصبيّة .. كانت للرجل رائحة غريبة .. لكنها ممتعة .. يومها ظللت أحلم برجل يحبنى .. ويحملنى .. وينتشلنى من أية لحظة رهيبة . متمردة إلى حيث الأمان .. إلى مدينة تكون لى وحدى .

ـ سأحملك .. وهيا .. لندخل إلى المدينتين .

ـ لا .. حملتنى كثيرًا .. واحتملتنى .. أريد أن نخطو معًا .. خطوتك تتناغم مع خطوتى .. نمضى سويًا .

* * *

انظر ...

هى ذى المدينة الأولى .. هادئة .. موغلة فى أحلامها . تستطيع أن تخلع حذاءك .. أن تمشى عارى القدمين فتلامس العشب الناعم النظيف والتربة الرطبة .. الأرض محناة بحنان أخضر .. رائحتها تشبه رائحة اللبن أول فورانه .. فى سمائها ترفرف حمائم بيضاء كرايات مولودة للتو فى قلب غيمة .. تستطيع أن تنام عاريًا رغم برودتها .. لن يلسعك بردها .. تدفئك أحلامك . وفى الصباح تستيقظ على هديل الحمام يرفرف مسالمًا حرًّا مغرورًا بالفضاء النظيف .

والآن .. انظر إلى الناحية الأخرى .. ماذا ترى ؟؟

ـ الله .. تلك مدينة رائعة ! !

ـ بالضبط .. إنها تنبت كعشبة أبديّة .. تنتفض كامرأة فى لحظة نشوتها .. لا تقل جمالاً عن الأخرى .. لكنها ....

ـ أجل .. تختلف .. تلك هادئة وديعة .. لكن يبدو أنها مملّة كذلك .. أما هذه .. يفوح صراخها .. صخبها .. تبدو مثيرة تستنفر الفضول .

ـ كأنها مدينة من الورق .. هشّة .. يخيل إلىّ أننى لو لمستها بيدىّ لتناثرت .

ـ لكنها مغرية .. أراها مكتظة .. صارخة .. يبدو أنها لا تعرف النوم ...

ـ ولا الراحة أيضًا ..

ـ لماذا لا ندخل تلك المدينة الصاخبة أولاً ؟؟

ـ هل تحب أن تموت قبل أن ترى الأخرى ؟

ـ هل هذا تخويف ! أم حقيقة ؟؟

ـ الموت هناك يترصّد البشر ! ولو حدث وَمُتَّ فمن سيحمل جثتك ؟ من سيسترها ؟ من سيصّلى عليها ؟؟

ـ الناس !

ـ الناس هناك لا يعبأون إلا بأنفسهم .. والموت يأتى من رصاصته ! والجثث تغطى الأرصفة .

ـ لكنها مغرية .. وتلك المدينة تبدو موحشة .. صامتة .. لا أرى فرصة لانبثاق النور منها .

ـ نستطيع أن نخلق النور .. أن نضىء شمعة .. تلك مدينة تعودت أن تهدأ .. تنام .. تحلم .. مدينة قوية طبيعيّة عروقها فى الأرض .. ورأسها نحو السماء .. تلك مدينة صلبة منذ قررت أن تكون كذلك .

ـ إذن .. تفضلين أن ندخلها أولاً .

ـ بالطبع .. وسترى الأخرى بعد ذلك ـ وإن رَحَمَتْكَ السماء ولم تَمُتْ .. ستختار أين تبدأ ثانية .

ـ هل نحتاج لشيء معنا ؟ أقصد .. سلاحًا .. مؤونة ؟

ـ يا عزيزى .. هنا .. لا أحد يجوع .. الكل يجد له طعامًا .. إنهم لا يتقاتلون لأجل اللقمة .. لأنها تأتى وتوزع بالعدل .

ـ خيمة نتستّر تحتها !

ـ ستجد الأمان أينما حلّلت .. حتى لو نمتَ تحت ظل شجرة .

ـ شيء نتسلى به ....

ـ هذه المدينة مليئة بالألعاب المسلية ... وفيها أطفال سعداء ... سنلهو معهم ستتنسم من ابتساماتهم عطر السعادة .. تحسهم بلاعاهات .. بلا عقد ... فرحين يعيشون فى سلام دائم .

هيا .. اقتربنا .. الحشائش تلتمع .. تغريك بالنوم .

ـ ولكن ! هذا الصخب الآتى من هناك ..

ـ صخب المدينة الأخرى .. لا تخف .. سيقلقك لفترة صوت الهرج والرقص مختلطًا بأصوات الجوع .. والرصاص .

انظر .. هناك حديقة من الرمل الناعم .. مثلها كثير .. إنها متاريس تحمى الأطفال .. وتمنع الشر .. فلا تخشى أن تصيبك رصاصة قناص .. الرصاص لا يخترق الرمل .. المدينة محصنة .. أهلها لا يخيفهم الرصاص .. ولا ألسنة النيران المندلعة .. تمامًا كما لا تغريهم صيحات الرقص .. وروائح البضائع النادرة :

ـ أنت تطمئنني ..

ـ وستنام هنا .. مطمئنا .

* * *

جسدى يتشرب برودة الأرض .. عيناى تجولان فى عالم أخضر .. الشجرة الباسقة تمنحنى شيئًا من الأمان ونحن نسترخى عند ساقها العريض .

ـ ترى ! كم من السنوات عاشت هذه البقعة الخضراء ، وهذه الشجرة ! كم من الأطفال عبثوا سعداء تحت ظلالها ؟؟

ـ إذا كان أطفال المدينة آمنين كما تقولين ! فآلاف منهم رتعوا تحت ظل الشجرة .

سقطت ورقة على وجهى .. سحبتها .. تأملتها . خطوطها منسقّة .

ـ انظر كيف خلق الله هذه الورقة كيف نسقها وبعث بها الحياة .

ـ الأوراق تموت حين تسقط .

«كنت أعيد الحياة للوريقات المتساقطة .. يوم أحببت رجلاً كنت أجمع أوراق الشجر فى كل مكان زرته .. وأكتب عليها اسمه .. وتواريخ لقاءاتنا .. وأضعها فى كتاب حتى تجف .. تموت عروقها .. لكن لونها الأخضر يبقى .. ويبقى الاسم وشمًا دائمًا . »

ـ أين تلك الأوراق الآن ؟؟

ـ يوم أحببتك أحرقت كل الأوراق القديمة .

ـ كان من الممكن أن تنسّقى تلك الأوراق كذكرى .. كنوع من الديكور ..

ـ ليس سهلاً أن تنسق الأوراق الجافة .
ـ وكذلك البشر ، كُلّ له طبعه .. ومزاجه .. وأحلامه .
ـ آه .. لو نسّقوا صفوفهم حقًا .. لغمر السلام أنحاء الأرض .. انظر إلى هذه الشجرة .
ـ ساق ضخمة تحمل كل تلك الأوراق .. ربما آلافًا .. ملايين .. من يدرى .. هل نعدها ؟
ـ إن ما يدهشنى حقًا .. ليس عددها .. بل تآلفها .. كل هذه الأوراق تستمد الغذاء والقوة من هذه الساق ، وأتساءل .. لماذا لا تجمع هذا العالم ساق واحدة !
ـ أمنية .. بعيدة المنال .. ها أنت ترين مدينتين تختلفان :
هدوء .. صخب .. سلام .. حروب .. ومن يدرى ! لم تحدثينى بعد عن تلك المدينة .
ـ ستدخلها .. وترى بنفسك .
ـ أحب أن أسمع .
ـ أخشى أن تغريك .. فتفر الآن من قربى باحثًا عن المتع .
ـ إلى هذه الدرجة ؟؟
ـ أجل .. هنا . كما قلت لك .. لو نمت عاريًا فستدفئك أحلامك . ولكن هناك .. لابد أن تلبس الحرير .. وتتعطر .. المدينة الكرنفالية ترفض من لا يساير أهواءها ..
ـ أليس الإنسان حرًا يلبس ما يشاء ؟؟
ـ لا ! أنت مقيد .. عليك أن تحب أشياء كثيرة تكرهها .

ـ أنا لا أحب إلاّ النساء .

ـ لا عجب في ذلك ... تلك مدينة الخمر .. والنساء .. والرصاص ..

ـ ونساؤها .. هل لهن جمال خاص ؟؟

ـ جميلات ! لكنهن غادرات .. قد تكون المرأة خنجرًا يندس في خاصرتك لحظة انتشائك . وتتصور أن في داخلك كنزًا .

ـ والخمر ! إنها تفرج الكرب أحيانًا ..

ـ ستشربها .. وحين تفيق ستفاجأ بأن أصابعك قد سرقت .. أو ... ربما لا تفيق .

هناك ينفجر نهر الزمن في لحظة .. فينزف دمًا أحمر ! وتنسى المرأة .. والخمر ... والرقصة اللذيذة .. والجرائر .

ـ أحمل سلاحًا .

ـ لن يفيد ! يجب أن يكون لك ناب .. ومخلب .. وقبضة مصارع تسددها إلى الخطر الذى يأتى فجائيًا .. أما السلاح فأمرُه سهل .. فهناك يقتات تجار الأسلحة من صراع البشر .. كلما تهاوت جثة صَنعوا رصاصة .. وكلما احترقت مدينة .. صنعوا سلاحًا .

ـ كلما أغرتنى بهجة تلك المدينة .. أرعدتنى كلماتك عنها ، هل تخشين أن أذهب وتعجبنى .. وأبقى .. هل تغارين من نسائها ؟

ـ لم تر بعد نساء هذه المدينة إنهن أجمل .. وأروع ..

ـ ألا تخشين منهن ؟؟

ـ النساء هنا مختلفات يعشقن ولا يقتلن .

ـ يبدو أننى لن أكمل الرحلة .. غدًا نعود من حيث أتينا .
ـ لا .. أريدك أن تذهب إلى تلك المدينة .. لابد أن تدخلها . تراها عن كثب . وعليك أن تختار .. أن تجرّب .

* * *

كانت التجربة قاسية !

تصلبت عيناى المترعتان بأحزان الدنيا فى عينيه .. أستجلى منهما نظرة رحمة ! بادرة تعيد إلى أوصالى وزنها المتهاوى :

ـ أبى .. لا تفعل ! لا تترك البيت ...

شدّ على يدى .. اهتززت كغصن .. تناثرت شجاعتى ..

تهاويت .. لثمت قدميه .. ركلنى وزمجّر :

ـ وسآخذك معى !

ما أقسّاه ! !

إذا كان للزمن وجه أقسى من الحجر .. فقد كان وجه أبى لحظتها أقسى من الزمن .. أقسى من سيف يبترنى ..يفصلنى عن حنان أمى .. عن كتفها الذى حملنى جريحة وعلّمنى المشى بعد ذلك .

وزحفت إلى حضن أمى .. كان دافئًا رغم البرودة التى تناوبت رعشاتها عليها ، وكان الحزن فى وجهها جرحًا طريًا ينز دمعًا .. ويتقاطر دمًا .

ومن بين شفتين صفراوين .. انتحرت فيهما الدماء قالت :

ـ كبرت البنت ... هى التى ستختار ..

وهدر صوته حادًا بتَّارًا لكل ما قد يأتى من ردود حتى وإن كانت متوسلة .. متهاوية بذلّها :

ـ لن تختار .. لقد اخترت أنا .. وسآخذها معى .

ورابطت فى حضن أمى .. كم من الأيام ! والأسابيع ! والشهور ! لا أدرى كم انتظرت حتى جاءت لحظة الاختيار . وصوت القاضى يتلاطم فى بحر الصمت قبل أن يصل إلى أذنى :

ـ تريدين أمك .. أم أباك ؟؟

واريت وجهى عن أبى المترصد ردّى .. وعن وجه أمى القانع كأنه يثق بأن البذرة لن تختار إلاّ أرض الخير التى نبتت منها .

وأنا ....

تضطرب الأشياء داخل نفسى وعلىّ أن أختار .. من هنا .. من شفتى المبللتين بدمع أمى المالح التى رقدتُ فى حضنها فترة الانتظار . يجب أن يصدر الحكم .

لحظة الفصل .. الاختيار .. الحكم الأخير ... أنا التى سأنطق به .

كانت التجربة صعبة .

أن تختار بين أرضين رغم قناعتك بالفرق الشاسع بينهما . أرضين لمست منذ وعيت مداهما الممتد .. تلمست تربتهما اكتشفت كيف تكون التربة الجافة التى تتصارع ديدانها لتغتال أشجارها المشنوقة .. فلا ينسدل منها فرع ليظللّ قيظ الطفولة .. وتربة تتندّى بفيضها الدائم .. بخيرها الذى ينبع صافيًا كلما انهالت عليها شهوات السماء .

اللحظة .. رغم قسوتها حاسمة .. هكذا يجب أن تكون .. مرة فى العمر تختار الطريق بعد التجربة فتعتاد المشى فى الدروب بلا تردد

* * *

وأنت !

عليك أن تختار ..

ـ أختارك أنت .

ـ وأنا اخترتك .. آلاف الحصارات كانت بينى وبينك .. بيننا .. وبين الغد .. زمن يرتحل .. وزمن يليه ... وفى الأفق كانت أزمان نجهلها .. لكنّا تمنيناها .. قرصنا ليالينا .. همزّناها كما تهمزّ الخيل لتجرى .. تسابق النهار .. والنهار .. والنهار ...

ـ حتى أشرق النهار .

ـ غدًا .. يشرق أيضًا .. ستزور المدينة الأخرى ..

سأنتظر قرارك .. حتى تلك اللحظة سأبقى أحبك .

* * *

واجمًا تأتى ..

صامتًا تعود ...

خطاك ثقيلة .. وجهك أصفر ينبئ عن أرقٍ لازمك ، وضيق باتَ فى صدرك .

وعيناى !

علامتا سؤال .. حائرتين .. هل أسألك ؟؟

لكن حصارًا كالريح يداهمنى .. يلفّ بى .. تأتى الصور .. تدور ...
قدماى المحروقتان .. الثقيلتان .. وجه أبى لحظة اختيارى تجمد .. تقلّص ..
فَقَدَ آخر نقطة دم .. حين أعلنت : أريد أمى .. وجه يحترق كتلك الأوراق
التى أحرقتها .. وجه الميت المصفر المسجى على نعشه ! وأوراق الشجرة
الكبيرة .

الحصار يدور .. أدور .. وأنت تقترب .. أحسك وكأنك تهرب فى كل
العالم لتندس فى صدرى .. تشهق تبكى .. يغسل الدمع صور البشاعة التى
علقت فى بؤبؤ عينيك .. وقلق الليل الذى عانيت .

تأتى .. شفتين جافتين تعلنان بصدق .. هنا .. صدرك مدينتى .. وكل
المدن هذه ليست لنا ..

أفتح ذراعى .. أحضنك .. أشم عطر شعرك .. أحسسه ، عطر مدينتنا
المنتظرة .. أحس أن الوطن أنت .. وأنت المدن .. وأن التجربة الوحيدة
الناجحة هى أنت .. يدك تحضن يدى .. عيناك تقولان :

ـ تلك مدينة كريهة ..

أسبل جفنىّ .. أوافقك .. أتلفت إلى المساحات الخضراء التى حولنا .. إلى
الشجرة ذات الساق الضخمة .. أوراقها .. الكثيرة .. كأننى أسألك ..
وهذه ؟؟

يخرج صوتك الحبيس :

ـ علمتنا المدن .. ونستطيع أن نزرع شجرة .. بل أشجارا .

ـ إذن .. تقرر أن نعود ..

ـ أجل .. هناك سنحدّث ناسًنا . وقد نستطيع أن نبنى مدينتنا من جديد .

لا يصلح للحب

عند إشارة المرور التقت نظرتانا .. كانت له عينان جميلتان ، عينا صقر قويتا النظرة ، عينان اعتادتا التفّرس والتحديق فى موقع الفريسة .

حدجنى بنظرة حمّلها كل ودّه .. أرفقها بابتسامة. أحسست بعذوبتها تتقاطر. تود لو تبلل وجهى ، لكننى خيبت أملها .. وأمله ، حدجته بنظرة بصقت معها كل احتقارى .

من يظن نفسه ؟؟

هل يتصور أن عينيه تغريان امرأة مثلى تحررت منذ شهور فقط من سجن تجربة مريرة , وقبل خمسة أيام فقط استطاعت أن تتمالك أعصابها لتقود سيارتها وكان كل خوفها أن يتبعها ذلك الرجل الذى انفصلت عنه فيطحنها انتقامًا ويساويها بالرصيف .

* * *

حين نطق القاضى حكمه صرخ :

ـ لا .. أنا لن أطلق وحكمك باطل .

قال القاضى ببرود أعصاب حَسَدْتهُ عليه :

ـ انتهى الأمر.. القضاء خير فاصل بينكما .

قال بكل جرأة ووقاحة :

ـ أنا أحبها !

التفت نحوه ، شحذت بعض الشجاعة وأنا فى حضرة القاضى وصرخت :

ـ ولكنى لا أحبك . ولم أحبك يومًا .

قال :

ـ هذا ليس كافيًا ليتم الطلاق .

نقر القاضى بيده على الطاولة :

ـ اسمع يا هذا . هناك سبب جوهرى ، أنت تعرفه ، من حق المرأة أن .....

وقاطع القاضى ...

تريد أطفالاً .

قلت :

ـ نعم أريد . خمس سنوات كافية . وأنا امرأة من حق أن أحضن وجه طفل .
لو كان قد جاء لأنسانى المتاعب الأخرى التى عشتها معك .

* * *

كان يفرغ عقده كالسم فتسرى فى بدنى ، كنت أتآكل وأنا أرى وجوه الأطفال فى كل مكان ، وأحسد الأمهات ، وأشفق عليهن من حسدى ماذنبهن إذا كان قدرى وأنا العاشقة لعيون الأطفال أن أحرم منهم ؟

وكان حين يلمح نظراتى المشحونة حبًا واشتهاء لوجوه الأطفال يثور ، وأحسه يطحن غيظه تحت أسنانه . يزفر وتصير له نظرة حمراء يغرسها كالناب فى لحمى فأخاف . وأحوّل نظرتى وأستجدى رضاه . كنت أعلم أنه فى البيت سيحول الأمر إلى جريمة ارتكبتها ولن يتردد فى ضربى أو شد شعرى . وكنت فى كل مرة أقرر أن أقصه حتى لا يجد ما يعطيه الفرصة لإذلالى . ولكن لا أدرى لماذا كنت لا أفعل !

وذات يوم قررت أن أكسر قيدى . صرخت فيه :

ـ طلقنى .

قال :

ـ لا تحلمى .

قلت :

ـ سأرفع قضية .

قال كأنه يذكرنى بأنه رجل :

ـ سأماطل ... سأتهرب ، . سأجعل قدميك تحفيان وأنت تتمرغين فى أحلامك بين أروقة المحاكم .

حقدت عليه :

- هل تقبل امرأة تكرهك ، ترفضك ؟

قال بغرور :

- لا يجب أن ترفضينى أنت . أنا الرجل . وأنا الذى أقرر ، أبقيك .. أو أرفضك .

- وكرامتك ؟؟

- هو ذا معنى الكرامة . يجب ألاّ ترفضنى امرأة . أنتن كالأحذية نستبدلها متى شئنا .

* * *

شهور طويلة مرت .

ليال قاسية باردة تعصف بى ، تحولنى مرة إلى قطة وديعة فأحاوره بلطف .. وأرجوه أن يطلق سراحى ، ومرات أنقلب إلى نمرة مفترسة أغرس أظافرى فى لحم المخدة وأصرخ .. لكنه ببرود يلتهم حوارى ، ويشمت بضعفى . يستبيح تعذيبى وكأنها الوسيلة الوحيدة التى تحرره من عقدته .

أخيرًا لجأت إلى المحكمة ، فهزأ بى ... لكن المحامى طمأننى :

- هو يريد إحباطك ، لكنك ستكسبين القضية .

وصرخ هو فى وجهى :

- ستطعنين فى رجولتى حين تعلنين أنى عقيم !

قلت له :

- تصورْ لو كنت مكانى .. ماذا كنت ستفعل ؟؟

قبل أن ينتفخ كالديك ويفتح فه كنت أكمل :

ـ ستتزوج امرأة ثانية لتحقق مرادك .

ولطفَّ من لهجته :

ـ ولكنى سأبقى عليك .

ـ شفقة وحسنة منك .. أنا لا أستطيع أن أبقى عليك . وليس مسموحًا لى بزواج ثان .. أية مصيبة قيدتنا بهذا الشكل ! لماذا ندفع الثمن ؟؟

* * *

دفعت كثيرًا للمحامى .. دفعت من أعصابى ، من راحتى ، وحين أعلن القاضى الحكم نسيت كل شىء ، شعرت بأننى ولدت عصفورة وعلىّ أن أحلق بعيدًا . لكنه ركض خلفى ، كان صوته عاليًا يهدد :

ـ سأقتلك .. سأهرسك بسيارتى . سأحرمك الحياة .

واختفيت ! شهورًا وشهورًا أخشى أن ينفذ حكمه وأخسر عمرى بعد أن تصورت بأنه بدا بعيدًا عن رجل سرق منه خمس سنوات مظلمة لم يستطع أن يهدينى خلالها وجه طفل .

* * *

نعم وجه طفل ... وليس وجه رجل ألتقيه عند إشارة المرور !

لكنه حدّق ..

شحن النظرة بالود .. بالرغبة .. بالحلم أن أبتسم له ، أبادله الفرحة . وبعد ذلك يلحق بى بسيارته ، يقف .. ويتصور أننى سأقف وأنتقل بكل بساطة إلى

جانبه تاركة سيارتى على الرصيف يهلع قلبها لأجلى .

سيبادرنى :

ـ إسمك ؟

سأخترع له اسمًا .. أى اسم سعفنى لسانى وينطقه .

ثم :

ـ من أنت ؟

سأخترع له كذبة جديدة .. أنا ابنة فلان ، أعمل فى مؤسسة كذا .

و ...... عازبة !

سيرتعش . بالطبع سيتمنى لوكنت امرأة !. سأكون أسهل عليه . لكنه لن يعدم وسيلة يثير بها اهتمامى لعّل وعسى .

طرت بسيارتى . تمهل هو . لابد أنه يلتقط رقم السيارة . وسيحظى بصديق له فى إدارة المرور يستخرج له الاسم ، والعنوان ، ورقم الهاتف و ...

ألو .....

ـ من أنت ؟؟

ـ أنا الذى قابلك عند إشارة المرور .

ـ وماذا بعد ؟؟

ـ ابتسمتُ لك .. فكشرت فى وجهى .

ـ مادمت كشرتُ فى وجهك . فلم الاتصال ؟؟

ـ أعجبتنى .

ـ وأنت لم تعجبنى .. ولن تعجبنى .

ـ جربى .

و ....

سأغلق الخط فى وجهه .

مرة ثانية .. سوف يعاود الاتصال وسأصرخ :

ـ ماذا تريد ؟؟

ـ لقاء .

ـ ياكلب .

ـ الكلب اوفى مخلوقات الله .

ـ ياوغد .

وسأصفق السماعة .

لن يتعب . ولن ييأس . رجل واثق من نفسه :

ـ أرجوك لا تكونى عصبية .

ـ ماذا تريد ؟؟

لهجتى ستكون أهدأ .

ـ قلت أريد لقاء

ـ لماذا ؟؟

بعض الرقة فى صوتى .

ـ لنتعرف .

ـ ولكنى لا أريد أن أتعرف .

ـ فى لهجتى دلال .. وتردد .

ـ حاولى . ولن أضايقك .

ـ هل أنت صادق فيما تعدُ به ؟؟

لهجتى فيها رضى .

ـ أحلف لك .

ـ وماذا بعد اللقاء ؟؟

لهجتى فيها مودّة .

ـ أبدًا .. قد نكون بعد ذلك أصدقاء .

ـ أصدقاء ؟؟

فى لهجتى نبرة أمل .

* * *

أمل داعبنى .

أحتاج حقًا لصديق .. الشهور الطويلة التى تنقلت فيها وحفيت أقدامى

وأدماها شوك المتابعة ، أفقدتنى كثيرًا من الأصدقاء .

كنت لاهية عن كل شيء . وبعد الطلاق ، افتقدت كثيرًا من العلاقات التى بنيتها يوم كنتُ زوجة . النساء لا يرحبن بى . كل واحدة تتصور أننى سأسرق منها زوجها .. والرجال تحوّلوا بقدرة قادر إلى ذئاب تلاحقنى ألسنتها اللاهثة بشبقها العنيف .

عشت فى فراغ احتوانى حتى كدت أحس أننى وحيدة فى هذا الكون . لا أسمع سوى صدى صوتى ولا أرى إلاّ خيوطًا متحركة هشة لا أستطيع الإمساك بها . ولا الإفلات من مراقبتها وكأننى سأحظى يومًا بخيط متين أتعلق به . يمرجحنى ثم يغمرنى ، يلتف حولى وأشعر بالأمان .

صديق ! ! !

نعم . أحتاج لصداقة .. لمعبر أمر منه فارّةً من الكوابيس والأحلام إلى الواقع ..

سيعترى صوتى الفرح . سأسأله ثانية لأتأكد :

ـ أصدقاء ؟؟

ـ نعم . لم لا ؟

ـ ....

سيختنق صوتى .

ـ لا تردين ! هل ترفضين دعوتى ؟

ـ أين ؟؟

أخيرًا .. لهجتى .فيها القبول .

ـ أى مكان تريدين .

ـ أخشى أن يرانى أحد .

لهجتى فيها تردد .. ألستُ امرأة مطلقة ؟؟

ـ كل الأحد هذا يخرج .. ويعيش .

ـ ولكن كلام الناس دبابيس تدمى . فتثير الرائحة .

ـ هواية الكلام لن تغفلك حتى لو كنت فى قمقم .

ـ إذن . اختر المكان . أى مكان خال من البشر.

ـ سأختار. سنلتقى يوم كذا .... الساعة كذا ... و .....

سأغلق السماعة .

* * *

فى الليل سأتقلب ... سأقلق .. سيكون الفراش شوكًا . ما الذى سيحدث ؟؟

رجل له عينان جميلتان . لا أعرفه . يدعونى للقاء وأنا امرأة خاضت غمار تجربة فاشلة . هو لا يعرفنى . فهل أجرؤ أن أقابل رجلاً وكل الرجال من حولى ذئاب وصقور ؟؟

سأحزن .. إد تترسب هذه الفكرة فى رأسى هذا يعنى أننى سأحرم نفسى فرصة قد تكون ذهبيّة . سأحرم روحى لحظة تسافر فيها إلى مدن العشق والرعشة والاستشفاء من مرضها ، و .....

سأداعب جسدى .... وشفتي : سأحرم هذه الحيوانات الصغيرة الراكدة فى هذا البض الوسيم أن تختار عشقًا يدغدغها . ويوقظ فيها نبرات جفت وارتحل عنها موسم الربيع .

أليس هذا ظلمًا ؟؟

النار تحرق .. هذا صحيح . لكننا نحتاجها لندفأ . الماء قد يغرقنا . لكننا لا نستغنى عنه ليبلل جفاف حلوقنا فى مواسم العطش .

الأشواك كلها تدمى لكننا نكون قد شممنا عطر الزهور التى تحرسها .

لماذا أحكم على كل الرجال بأنهم ذئاب فأسدُ باب الأمل أمامى .. الأمل فى أن يكون لى طفل أعانق وجهه .

كيف ؟؟ ولماذا سيأخذنى التفكير إلى هذا الحد ؟؟ أليس من الممكن أن يكون متزوجًا وله أطفال يعانق وجوههم ؟ أو أنه يريد أن يتسلى ؟ أن يغير طعم حياته التى ربما ركدت بفعل الوقت ومرور السنوات فملّ وجه زوجته .. أو .. ربما هو يحبها .. لكنه فقط يريد أن يعيش تجربة عابرة .

وأنا !!

هل أكون ابنة السبيل المتسولة السهلة التى تنتظر المنحة ؟؟

أنا بحاجة إلى رجل . رجل حقيقى . رجل لا تتواطأ نظرته مع ما بداخله من

حيوانية وتوحّش . رجل لا يستبيحنى لنفسه بمجرد نظرة تجردنى من أصغر ما أرتدى .

ولكن ! أين هذا الرجل ؟ أغلب الرجال لا يصلحون للحب .

الرجل الذى أريده له مواصفات معينة . أريد أن تكون له نظرة لا تخدشنى . ولا تعرينى . نظرة رطبة حانية . تحتوينى . خجولة تحترمنى .

آه ... هل يوجد رجل كهذا ؟؟

وهذا الذى غرس نظرته الصقرية فى مسام عينى . هل أعطيه الفرصة ؟ هل أعطى لنفسى الفرصة ؟؟

لا .

لقد كانت عيناه مركزتين . واثقتين . فيهما إصرار ، فيهما كلام يقول :

« لن تعصى على امرأة . أنت ككل النساء »

هل أصير ككل النساء التافهات ؟ هل أسلم نفسى لعينيه تنهشان حتى العظم ؟؟

لكن عينيه جميلتان .

ما أهش جناح الفراشة الجميل .

سأطوى نفسى . سأعانق دفء المكان . سأطرد عينيه الجميلتين . سأحول أن أنسى يوم كذا ... الساعة كذا ... وسأرحل فى نوم لذيذ .

* * *

دقـات الـمطــر

مطر....

مطر....

والغيوم عرائس بيضاء تتعانق فى السماء . ثم تنفرش ، ثم تتلاصق ، تتزاوج ، تطلق شهقة ، تلتمع ، تضىء ، تلد المطر. خير يحلب من السماء ، والأرض تفتح نفسها ترتجف إذ تُفرغ النشوة بداخلها . تمتص . وتزهر. وصوت الزخات له رنين عذب كأغنية أُمٍّ تتهادى إلى أذنى ، تتزلق إلى قلبى . أحسها . أسمعها :

تُمْ .. تُمْ .. تُمْ .. تُمْ ..

هواء باريس يلفح وجهى ، مداعبًا تارة .. وقاسيًا تارة أخرى . يدخل إلى رئتى باردًا ، ناعمًا له رائحة الصبر والأمل .

الزحام شديد . ونظراتى تبتلع الوجوه التى لا تجد لها مكانًا فى الذاكرة . نهار يركع للاهثين المتزاحمين على المتاجر ، على أفران الخبز ، على الباصات ، والتاكسيات ، على المقاهى ، كل وجه يحمل بصماته وحكاياته . وتشتعل

ذاكرته بآلاف الأسماء ، والمناسبات ، والتذكارات . كل ذكرى تحمل طعمها ، حلاوتها ، مرارتها ، ووجهى ! ! لابد أن كل العيون ترى فيه حيرته ، وربما قصته ، أو ربما تفيض منه هذه الأفكار التى لا تهدأ ، تتسارع تخطو معى كلما خطوت خطوة على الأرض المبللة .

المطر يلتمع على الأسفلت الأسود .. ذكرنى المشهد بوجه المرأة الأفريقية : وهى فى لحظة مخاضها . مشهد رأيته فى أحد الأفلام وتقلصت عضلاتى .. يومها قررت ألاّ أمر فى لحظة كهذه .

الماء جداول تنحدر إلى الأطراف حيث تبتلعها فتحات المجارى . هنا يصب العَرَقْ . والجدول .. آه لو تصب هنا كل الموروثات البالية . كل الأفكار الحجرية التي ولدت فى العقول واتخذت قرارها الأبدى بألاّ تغادر .. ولا تلين .

مطر ...

مطر ...

والهواء البارد كصفعة أب لا يكبر أبناؤه أمام عينيه وباريس العروس ، وأنا ! التائهة الجديدة فى مدينة تحلم بها القلوب قبل الرؤوس . أحسّ لسعة البرد . أدفن كفى اليسرى فى جيب تنورتى الضيقة . وكفى اليمنى تحمل المظلة الزاهية تشد عليها فأتذكر كف أخى التى شدّت على كفى وهو يودعنى قبل الرحيل . وكلماته التى تدحرجت من ثغره . كلمة تدفع الأخرى وكأنه يخشى لو تأنّى أن تخونه الكلمات أو يفرّ بعضها :

ـ ذهبت لمزيد فى العلوم . عيشى هناك . استفيدى من وقتك . واستمتعى بقدر

ما تسمح لك به الحدود المرسومة تذكرى دائمًا أننا شرقيون ! عرب ولنا عادات .. وتقاليد .

ابتسمت له مداعبة :

ـ وإن أحببت « فرنسيًا » فماذا أفعل ؟؟ هل أتزوجه ؟

قال بطريقة ودية لا أدرى هل ليقنع بها نفسه أم ليقنعنى :

ـ لا أتصور أنك ترتكبين حماقة كهذه . أنت تعرفين الأصول ... وتقاليدنا ... القيد نفسه ....

يلفه أخى ساخنًا حول عنق حتى وأنا أحمل وعيى وعقلى ، وثقافتى لأندرج فى ساحة الحياة . أبحث عن موطئ أكبر يتسع لكل الأحلام ، والأمانى والأمل فى أن يخفق قلبى مرة واحدة بحرية .. بشىء اسمه الحب . كلمة لا يعترفون بها وكثيراً ما يقفون فى وجهها كالسد المنيع .

وأنا .....

هل حقًا أستطيع أن أترك العنان لقلبى فينطلق كحصان جامح ؟ هل يحدث أن يكون مقرّ قلبى قلب رجل لا تربطنى به صله قربى ولا دم .. ولا دين ؟

حين كنتُ أمازح أخى ؟؟ لم تكن الفكرة قد سبقت ما قلته . جاءت وليدة اللحظة ذاتها . أترانى الآن أندم إذ تركت فى قلبه إحساسًا بالخوف منى أو علىّ ؟؟ هل سيعتقد بأننى أجرؤ أن أفعل شيئًا أو أتخذ خطوة أعلم أنها ستقيم الدنيا على رأسى ولا تقعدها .

هل يتصور أخى أننى أنسى تلك المهاترات التى أثيرت حول الزواج من العرب ؟! لقد دعا البعض لحرمان الكثيرات من حقوقهن ، السكن ، العلاوة الاجتماعية ، مؤكدين أن هذه المؤهلات وحدها تجعل العربى يسعى للزواج من بناتهم . ناكرين أية ميزة أو صفة حلوة تشد الرجال إلى بناتهم . متناسين أو قاصدين أن هناك شيئًا اسمه الحب يربط بين قلبين وتنكسر دونه كل القيود . وتذوب العقد .

إحداهن كتبت مرة تعترض على هذا الظلم وتذكّر بأن بعض الشابات تزوجّن « أجانب » لاتربطنا بهم صلة دم . ولا دين . وجاء الرد فى عدد آخر مفجعًا كتب أحدهم يقول : إن مثل هذا الزواج يعتبر مكسبًا فقد دخل الزوج إلى حظيرة الإسلام .

ياللسخرية ! ياللتقاليد الثلجية ، وهذه الأفكار المترسبة فى الظلام . كم هى بحاجة لمشاعل تذيبها ، تحرقها وتتفتح فى أرضها زهور جديدة !

وقفت فى مكانى ... أمام أحد الأكشاك المنتشرة التى تبيع الصحف مجلات مثيرة . صور جنسية تلتهمها الأيدى والعيون .. تقززت . سحبتُ مجلة للأزياء قلبتها لم تدهشنى . عندنا يلبسون كثيرًا مثلها . وهنا لستُ بحاجة لأى مظهر . الناس يفكرون بطريقة أخرى . بحثت عن صحيفة عربية . فرحت ، وحين تصفحتها أصابنى غمّ بالغ . وجدتها مليئة بأخبار الحروب ، والقتل . صور مشوّهة لأطفال ونساء ، ووجوه أخرى عبارة عن عظام ناتئة من أثر الجوع ! وفى صفحات مقابلة وجوه أخرى تتصدر صفحات المجتمع المخملى .. وجوه منمقة وأخبار ملفقة .

إعلانات تلتهم أغلب الصفحات ، مباركات ، وتعاز ، وإعلانات أخرى تطلب بيوتًا .. تطلب خدمًا .. وهواتف سيارة !! إعلانات عن طلب «كانيش » غالى الثمن ضاع أو خادمة خرجت ولم تعد !

زوايا كثيرة ... لبعض الجهلاء تشتم عباد الله وتسمى الشتيمة نقدًا . تحقد على الآخرين وتسمى الحقد وطنية صادقة ! ليت هذه القلوب تغسل مرات بمثل هذا المطر .

* * *

مطر ....

مطر ....

حنان سماوى يتدفق فى سماء رحيبة ، وبرد يفتت الصمت .

هنا .. فى أعماقى ، فى عاطفتى التى اشتاقت لدفء الصحراء التى لوحت الشمس وجهها ، عروسة سمراء دافئة تلتمع على جبينها حبيبات السراب ، وعطش الجوف ، ونور القمر .

حين ارتفعت بى الطائرة ودعت الأرض بحب . كان الحبل الأليف يصل ما بين الأرض ، وقلبى . وها هو يمتد ولا ينقطع ، ولايتراخى رغم مايثقله من وصايا . وتحديرات وتذكير بالتقاليد مبطن بشبه تهديد رقيق ، ووعيد . وكأننى طفلة ترنو إلى النار ولا تدرك العاقبة .

ها أنذا ...

أنزرع تحت المطر البارد بعد أن تركت النار فى الصحراء تلتهب . حملت

طموحى إلى بلد الحرية بلد الأحلام . فهل حرام أن نحلم ؟ أن نغادر القمقم المغلق الذى زرعونا داخله محارات يخشون عليها أن ترى النور ؟ أن تراها عين غريبة فتفتحها وتحييها وتكسر التقاليد ! كم أكره هذه الكلمة وحين كررّها أخى تمنيت لو تنعدم من قاموس حياتنا التى غادرتها لأبدأ حياة جديدة .

مطر ...

مطر ...

موسيقى انتحاره من السماء تعزف كلما ارتطمت بشجرة أو مظلة .. أو رأس عاشقين . كأنها تريد أن تمسح من الدينا كآبتها .. وشوائبها . زخات يلاحق بعضها بعضا أحسها تجرى أنهارًا من الفرح تتسابق إلى شراييني فأزداد إحساسًا بالبرد . أتذكر أننى خرجت هذا الصباح لأبحث عن « بالطو » يُخمد العاصفة داخل جسدى ، وعاصفة الشوق فى قلبى لأرض الصحراء الدافئة .

عيناى تتابعان واجهات المحلات . الأسعار الخيالية بحاجة لثورة تكسّر الواجهات وأصحابها ، والبرد اللافح يقرص جسدى فأندفع نحو مقهى قريب أطلب كوبًا من الشاى الساخن .

جرعته مرة واحدة سرى دفء عجيب جعلنى أبتسم ، وحين رفعت وجهى التقيت وجهًا مبتسمًا كأنه يردُ على ابتسامتى أو يهزأ منها . كانت له عينان ينبت داخلها حقلان أخضران . نظر إلى صدرى ، لمح السلسال الذى يحمل « ماشاء الله » التمع بريق مفاجئ واستأذن بأدب :

ـ هل تسمحين أن اشاركك طاولتك ؟

لم أجد مفرًا أمام هذا الأدب الخجول والعينين الجميلتين رحبت به :

ـ تفضل . الطاولة تتسع لأكثر من اثنين .

همس :

ـ عرفت أنك عربية من هذا .

وأشار إلى السلسال .

وابتسمت :

ـ وأنا عرفتك من العربية التى تتحدث بها .

تعانقت نظراتنا . أحسست بفرح . الآن أستطيع أن أنهى الصيام .. هذا وجه عربى ، لسان عربى .. سأتحدث إليه .. وسأستفسر عن بعض الأشياء التى أجهلها . جلس .. استمرت نظراتنا متعانقة .. كأننا نعرف من نحن . ومن نكون . كأننا التقينا قبل هذه المرة بالصدفة أو فى الأحلام . أو مع قطرات المطر المسافرة من سماء أخرى .

قلت :

ـ لقد أنهيت فنجان الشاى . وأنت .. هل تطلب شيئًا ؟

ـ لا ..

ـ سأستأذن إذن .

قلت هذا وبى رغبة أن يرفض استئذانى . أو أن يقوم ويرافقنى فى هذا الجو الرمادى البارد . تحرك . فرحت . قال :

ـ سأرافقك أو ....

استدرك كأنه تسرع :

ـ أو هل يزعجك هذا ؟

ـ لا ..

قلتها دون أن أفكر . دون أن أبطئ فى الرد . ولكن حين سار قربى أحسست برهبة كأنها إبر تذكرنى . هو بالطبع الخوف الذى يتبلد فى داخلى . جعلنى هذا أتلفت أخشى أن تصادفنى عين تعرفنى .. فتنقل الأخبار إلى أخى . إلى الأرض التى تأبى أن نتنفس هواءً عذبًا ونغرس بذرة فى أرض جافة .

كنتُ أبحث عن طريقة أدارى بها قلقى وهو قربى . ألحظ خطوته على الأرض المبللة وكفّاه داخل جيوب جاكتته .

بادرنى :

ـ نظام . اسمى نظام . طالب . وعامل .

ـ وأنا نوّار . طالبة . كسولة لا أعمل .

ـ لونك أسمر ولهجتك توحى أنك من ......

ـ الصحراء ... خليجية وستقول بأننى مادمت من هناك فلا داعى للعمل .

ضحك ثم تنهد بعمق . كانت السماء لا تزال تحلب خيرها :

ـ حاولت أن أذهب إلى هناك . لكن الأبواب مسدودة .

أشرت أمامى :

ـ الحياة هنا رائعة ، والجو كذلك . وأنت تعمل هنا . فلماذا تذهب إلى هناك ؟؟ .

عقد مابين حاجبيه . تأثر من كلماتى :

ـ أنت مخطئة . الحياة هناك تبقى أجمل . أنا ولدت هناك . وتعلمت . أنهيت المرحلة الثانوية . حسبت أننى سأكمل كل تعليمى لكن أبواب الجامعة سدت فى وجهى .

ـ لابد أن مجموعك لم يؤهلك لذلك .

ـ لا .. مجموعى ومجاميع كثيرة كانت كافية . ولكن ! !

أحسست بالغصة .. أعرف كل شىء . لم أحاول أن أستنزف منه أكثر وأفجر عذابه . أكمل هو :

ـ يشدنى الحنين إلى هناك . فكرت بالزيارة لكنهم رفضوا إعطائى فيزة دخول . و ...

قاطعته :

ـ ولكن أهلك هناك وتستطيع .

زفر : .

ـ كأنك لا تعرفين القوانين . منذ غادرت لأدرس انتهت إقامتى . لم أر أهلى منذ سنتين .

حاولت التخفيف عنه :

ـ يبدو أنك تعانى .

وكأنه كان بانتظار أن أفقأ دمل متاعبه :

ـ لاتتصورين كم هى الحياة قاسية . علينا أن نتعلم . لا أرض لنا .. لا وطن .. حتى ولا جواز سفر. شيء نحمله لتبصق المطارات فى وجوهنا . علينا أن نشقى لنوفّر مصاريف دراستنا . وبهذا نرد بعض الجميل لأهلنا .

ـ ليس عيبًا أن يعمل الإنسان .

ـ لم أقل هذا .. ولكن هل تعرفين أى عمل أقوم به ؟

هززت رأسى متسائلة وأحنى رأسه :

ـ أعمل فى حانة . وبعد ذلك أذهب إلى بيت عجوز أنظف لها البيت ، أغسل ملابسها ، أكويها . أجهز لها كل ما تطلب مقابل أن أنام فى غرفة أشبه بالمرحاض . وبهذا وفرت السكن .

ـ يا إلهى ! ! !

ـ نعم .. يا إلهك . إننى أشعر بعظامى تتصافق من التعب . لكنى ملزم .

ـ هل مثلك كثيرون ؟

ـ بالطبع . وكلهم له مشاكل ومتاعب . والأكثر من هذا الحنين إلى الأهل ، لأى أرض ولد عليها ، أليس محزنًا أن نولد على أرض ثم ما أن نغادرها حتى تصادر عودتنا إليها ؟؟ صدق نحن نحبها لأننا لا نعرف وطنًا غيرها . فكيف ترفض الأم جنينها ؟ وكيف لا ...

ـ اسكت ، آه .. لقد عذّبت قلبى . الشكوى نفسها أسمعها هناك من أمهات ، أمهات ، وآباء .. وأزواج لا يسمح لزوجاتهم .. و .. يا إلهى هناك قوانين كثيرة خاطئة ولكن : آه .. لقد أوجعت قلبى .

اندس فى وجهه خجل :

ـ آسف ، من اللحظة الأولى كنت ثقيلاً عليك .

ـ لا تعتذر مثلك يبقى دائمًا بحاجة لمن يسمعه ، لكن صدقنى .. نحن أيضًا نعانى .

استغرب كلامى :

ـ ماذا ؟؟ المال عندكم وفير .

ـ هل تتصور أن المال يحمينا من التعب ، والمعاناة ؟؟

ـ المال يحل مشاكل كثيرة .

ـ ها أنت تعترف . المشاكل ولكن ! ماذا عن الذى هنا ؟؟

وأشرت إلى صدرى .. وتابعت :

ـ فى الداخل فى أعماقنا يا .....

أَحس أننى نسيتُ اسمه فذكرنى :

ـ نظام .

ضحك ضحكة صغيرة وتابع :

ـ اسمى ثقيل .. مثلى .

ضحكت . كان دمّه خفيفًا :

ـ اسمع يا نظام .. أتصور أنه رغم كل الهموم التى تعانون .. تشرد ، غربة ،

فقر ، ربما اضطهاد .. ولكن أنتم تحررتم رغم هذا من أشياء كثيرة .

صمت

ـ هل تفهمنى ؟ .

ـ مثلاً ؟؟

ـ أقول لك . لو كانت لك أخت فى هذا البلد ، ورأيتها تمشى مع رجل .. تمامًا كما أنا الآن أمشى معك ، وأتحدث بحرية . هل سيغضبك هذا وتثور ..

و ....

ـ ياه !! هل هذا فقط ما تعانين ؟؟

هززت إصبعى فى وجهه :

ـ أرأيت ، هذا الأمر التافه حصار .. وغيره كثير كثير.

ـ ولكنى لا أراك تحاصرين نفسك . إنك شجاعة .

ـ يبدو لك ذلك . فى داخلى أحس بالخوف . أتصور أن كل العيون تراقبنى . وأنها مجتمعة ستكون عينى أخى ..

قال بحزن :

ـ آسف إننى بمرافقتك أسبب لك إزعاجًا .

ـ لا .. صدقنى . أنا مرتاحة إليك . ولكن هذا هو الواقع .

كنا قد اقتربنا من أحد المقاهى . تلفت . ابتسم .. قال :

ـ بودى لو أعزمك على جلسة مريحة هنا . ولكنك .

ـ أرجوك .. لاتفهمنى خطأ .

ـ أتصور يا نوّار أنك كبرت ويجب أن تكون ثقتك بنفسك كبيرة , أن تتصرف على هذا الأساس . مادمت لا تتصرفين إلا بحدود العقل . فلا يجب أن يمسك سيف الخوف .

ـ الخوف نما معنا.

ـ إننى أعجب كيف يدعونك تسافرين للعلم إلى بلد كهذا .. ثم يغرسون بداخلك الخوف من الحركة ، فتحاصرين حريتك .

ـ هذا هو التناقض الكبير.. وماخفى غيره كان أعظم ..

ـ عليك أن ترفضيه .. الآن فرصتك أن تكوّنى شخصيتك ، أن تعتمدى على نفسك ، أن تخلقى رأيك ..

ـ أجل .. سأحاول ذلك .

كنا قد وصلنا إلى نهاية الرصيف الذى تمتد عليه المقاهى . التفت إلى :

ـ على أن أستأذن الآن ... يبدو لى ذلك .

ـ هل ضايقك خوفى !

ـ لا .. بالعكس . قد نلتقى فى صدفة أخرى ، ونتحدث .

مددت كفى الباردة . مدّ كفه .. تعانقت الكفّان ، سرى دفء فى جسدى وأنا أغوص فى حقل عينيه وأهمس :

ـ ربما نلتقى صدفة . وربما نكون أصدقاء . ابتسم سعيدًا بجرأتى :

ـ هى الخطوة الأولى . ثم كل شىء هين . و...... ابتعد .

المطر لايزال رذاذًا .. وديعًا يغسل كل شيء . ويقرر أن يمسح عن الطرق كآبتها . وعن الشجر شوائبه ، وعن الوجوه حزنها .

وأنا ....

قررت من اللحظة أن أمسح كل شيء باضوه فى ذاكرتى . لا أريده أن يفقس فيها ويتزايد ، قررت أن أفتح فجوة يطل منها النور ليضيء كل الظلمة التى تقيد الخطوة إلى المستقبل .

وأكملت الطريق ... وصوت المطر يدق فى قلبى فرحًا .

تمْ .. تُمْ ...... تُمْ .. تُمْ .

* * *

الصرخة فى فم الثعبان

تعزفُ .. أترنّم .. أناملها الرفيعة الناعمة تنساب ، تضغط بخفة على أصابع البيانون ، ويتوزع اللحن الهادئ يمتزج بنسمات الغرفة .. أترنّم ... هى تبتسم .. تراقب وجهى الحالم :

ـ سعيدة أنت ؟

ـ جدًا .. هذا اللحن يغزو كل نقطة دم .. فتتفجر فيها حيويّة راقصة .

تقول مبتسمة :

ـ أنا سعيدة أيضا .. هكذا أحبك حالمة .. هادئة .. وديعة كحمامة .

ـ آه .. أود ذلك . لولا .....

تأتى الصرخة .. يتقلص وجهى .. تتيَبَّسُ كفى فوق جبينى .. تتعارك الأشياء داخل رأسى ... يتحول اللحن مطارق .. تصطفق أبواب ذاكرتى بعنف .. تزمجر صرختها اللعينة ! تطاردنى .. أترنّح .. أنسى سعادة اللحظة القريبة ..

تترك البيانو .. يسبقها خوفها .. تطوّق كتفى .. تدس وجهها فى عنقى .. تبلل عروق بدمعها .. تتوسل :

ـ ماما أرجوك .. حاولى .. سأعزف لك مقطوعة باخ ..

ـ آخ .. آخ .. الصداع .. الإيقاع الشنيع ..

تغمرنى .. هلعها .. حبها .. حنانها العذب .. همسها الدفئ .. ألَقٌ وديع يشع حولى .. لكن الصرخة الملعونة !!! أقع ...
فوقى تنهمر كحبة مطر موسمى .. تنفلت من وجهها حمرة ناضرة :

ـ لا .. أرجوك لا .. أنت بخير ..

ـ اللعنة ! الصرخة تطاردنى ..

قطرة ماء تنسكب داخل حلقى .. وَحَبّة مُرّه .. أبتلعها وأتنسم عطرها الدّفاق .. عرقها ينزلق من جسد مرتجف وأرى وجهها الأبيض الصافى ..
وثغرها يهتف :

ـ أنا أحبك .. هل أعزف ؟؟

ـ اعزفى يا حبّة الروح .

ـ سأعزف اللحن الذى تحبين .. سيكون أقوى من الصرخة .. صدقينى ..

ـ رحلت .. اللعنة عليها .. وعلى مَنْ زَرَعها فى رأسى .

* * *

تتراخى أطرافى .. تَتَنَمّل .. يداخلنى هدوء كغيبوبة أذوب فيها .. أسمو .. يغازلنى نعاس شجن .. يدغدغ مفاصلى ، كيده حين تداعب كل شىء .. الموسيقى تعبر مساماتى ووجهه يتلقّف نعاسى .. وذوبانى .. ذراعاه ترفعانى إليه .. كأرنبة بخف وزنى .. ويلصقنى بصدره أندس فى ضلوعه اندساس الأرنبة فى جحرها الدافئ .... أغرق فى النعاس .. أغرق .. أغرق ..

جسدى مسجى على الأرض .. أحلام تتراوح أطوالها تتداخل .. تغرينى باستسلام عذب .. ويتفجّر صمت الروح .. والموسيقى تهب كنسمات رخيّة تحملنى . أنفلت من جحرى .. من بين ذراعيه الحنونين .. أتحرر .. أترك جسدى تغالبه الأحلام ، ويتراقص منتشيًا .

أركض .. أركض .. لا أدرى .. جهات أربع تفتح أذرعها الصاخبة .. جنّات .. نيران .. عواصف .. نسمات .. رطوبة .. ثلج .. صراخ .. أغنيات .. سُعار مجنون .. وتأتى الصرخة . تشق الأصوات تغلبها تسقط بثقلها العجيب داخل جمجمتى .. أحس لها ابتسامة وقحة .. ابتسامة مومس باعت كل شىء فى ليالى الحقد .. والكراهية .. والغيرة العمياء .

تسقط الصرخة كجثة ترفرف حلاوة الروح فيها .. تقاوم الموت لتقتل الشعاع الأبيض داخل رأسى ... تبذل أقصى ما تستطيع لتقطع خيوط الأمل العذب الذى يتألق .. وكل الشرور فى أناملها الشقية الخشنة أقاوم ...

أركض .. الدم يتوزع بقوة يدفعُنى .. أركض .. غابة فسيحة .. أشجارها باسقة لكن خضرتها كئيبه كأن آلاف العواصف الرمليّة قد غزتها .. نامت عليها ، وأعشاب الأرض جافة طالت كأظافر جنيات الليل الغادرات .. شوك .. لكن قدمّى تُصران فأدوس على دبابيس الأرض .. الصرخة المجنونة تأتى . الموسيقى العذبة تتراجع .. صداها لا يكسر حدة الصرخة و .... أهوى .. ثم أرتفع .. و ... أراه بين النباتات الجافة .. يتحلق جسده دوائر .. دوائر متداخلة . ويرتفع رأسه نحوى ..

أرتعد .. ألتفت إلى الوراء .. هو ذا جسدى مسجّى لا يزال .. آه لو أعود

إليه .. أندغم فيه .. أتدثر .. أغوص .. أفر من هذا الثعبان الحاقد ..

ـ لا .. إذا رأيت الثعبان . فلا تتحركى ....

قال أخى وهو يحدثنى عن ذات مّرة حين التقى الثعبان فى إحدى المزارع .

ـ إياك أن تتحركى .. قفى حتى ينسل مبتعدًا وإلاّ هجم هجمته القوّية .

الخوف ... الرعدة .. رعد يتصافق داخل جسدى .. بروق حمراء ..

الفاتحة .. آية الكرسى .. المعوّذات .. السماء .. الله الرحمن ..

أتصلب .. قال أخى ....

أنتظر ... قال أخى ...

فم الثعبان مفتوح كفرج امرأة عابثة .. يفح كأن جهنم الحمراء تنفث أحشاءها الحارقة فى وجهى .. يتأملنى بنزق شرير .. أُصلّب حتى رموش عينى .. لا يجب أن أتحرك . أخى قال ......

لكننى .. أخشى ... أكاد أتهاوى .. أسقط فى لجج اليأس .. لا مفّر .. الثعبان أمامى .. الأشواك تحت قدمىّ .. لا منقذ من شر المخلوقات ..

أتعوذ ثانية داخل صدرى تنبت تعاويذ كنتُ قد نسيتها منذ غابت حكايات جارتنا المسائية .. حول « منقل » الفحم .. ورائحة « الطرثوث » تفوح .. وطعمه المّر .. المرّ .. مرارة فى حلقى .. لعابى كله مر .. وهو يتطلع .. ويقترب ... يصل إلى قدمى .. بدأ رحلته .. يتسلقنى .. لا أتحرك .. أخى قال .....

جسده الأملس ينساب على جسدى .. الرجفة تصمت .. أبتلع حتى دقات

قلبي .. أتركه يغزو الجسد .. يتجول عليه .. يشُمُّ رائحة الحبيب المتآلفة مع كل نقطة فيه يتشمّمُ .. عرقى المتصبب .. يُطرى جسدى .. فيزلق الثعبان من منطقة إلى أخرى .. هادئًا كأنه يتمشى فى سهل أخضر .. كأن شعر جسدى هو العشب النابت ذو العطر الربيعىّ ..

أخشى أن يعوى الجوع فى داخله .. فينقض على عنقى يمتص دمى .. لكنه بوداعه ينسل عائدًا مترنحًا للأسفل .. يتكور تحت قدمّى الثابتتين .. أحسها محفورتين فى الأرض .. كأننى نخلة زُرعت منذ آلاف السنين تأبى إلا أن تظل واقفة تتحدى .. هيا .. تحرك .. خذ قامتك الزاحفة وارحل . افسح لى الطريق .. جسدى مسجى هناك .. وصوت البيانو العذب يأتينى .. يهدئ روعى .. ووجهها الذى خلقه الله كوجه العصافير .. فأنتشى .. أود لو استمر هذا الانتشاء لأظل صامدة حتى يرحل . لكن الصرخة اللعينة تصفع اللحن .. ووجهها .. وحنان ذراعيه ـ اللذين خبآنى فى صدره .

أنتفض .. أهتز .. أقاوم ألا أمسك رأسى لأسكت قرع المطارق الصدئة داخله .. لكننى أفشل .. أصرخ .. تنتفض الصرخة ... تغادرنى .. يتسع فم الثعبان ينتفض .. ويفرغ الصرخة من نابين حقودين .. ينفث السم فى ساق .

آه .....

شىء كالنار .. يسرى .. يسرى .. كفّاى تتقلصان تقبضان على عرقها المالح ليرتد إلى مساماتى .. يشحننى بالقوة .. ليبطل مفعول السم الزاحف .. لكن السم يسرى .. ينساب .. إلى بقاعى .. فأغيب .

* * *

يدها تضغط على أصابع البيانو .. يسرى اللحن .. يخترق المسافات .. يعبر الريح الصارخة .. وهنا يستكين داخلِ أذنى .. لحن « باخ » .

ـ آخ .. آخ .. أترنح .. أتماسك .. أترنح .. أتماسك .. نشوة اللحن النافذ إلى أذنى تتعابث .. وجهها الرقيق يشع عبر تموجات الصوت .. يمدّنى بالقوّة يعنفنى على هذا الاستسلام الخائب .. ويزجر الثعبان الذى يتجشأ سُمّه .. يبتعد زاحفًا .

أنادى .. أنادى .. الصوت يخرج من داخلى .. ولا يخرج . أشباح من حولى تتحرك .. دم أحمر يتفجّر من مقلتى .. الكون دم أحمر ! صوتها العذب وحده يحمل عطر زهرة .. حمراء متفتحة .. يتوسل :

ـ ماما قومى .. تحركى .. افعلى شيئًا .. وإلاّ فقدت عينى الحلويتن .. وعينيه اللتين تحملان صورتك .. و .. كُلّك . أستفيق .. أقرر أن أستفيق .. أن أتحدى السم أنحنى .. ألتقط النباتات الجافة .. أربطها .. أوصلها .. يولدُ حبل قوى .. أشد موضع الألم .. أشد .. أشد أستل شوكة .. أمزق لحم ساقى الملدوغ .. ينهمر الدم متخثرًا ممزوجًا بالسم الأصفر .. وتتقاذف من جوفى كل ما جادت به معدتى المتضرمة بغثيانها .. أرتاح ... أنزلق إلى الأرض .. أتمدد .. يتمدد صوتها داخل روحى :

ـ تحبين هذا اللحن .. سأعزف لك الآن .. الدانوب الأزرق . زرقة السماء تلوح .. غيمتان تتراقصان .. أتذكره :

ـ أحب هذا اللحن .. وتحبينه .. هيا نرقص ..

هى تعزف .. نحن نرقص .. الصوت الشجى ينقذ روحى ..وسمتها ..

وشعرها المتهدّل على كتفين ناعمين .. وثغرها المبرعم كزهرة تنادى .. هيّا شُمّنى أيها الرائى .. عذبة.. عذبة .. وكفاها تلامسان وجهى .. عنق .. باردتان أزجرها .. تقلب شفتها السفلى تتكور كثمرة ناضجة ..

ـ طفلة .. مهما تكبرين ..

وتتحدانى :

ـ إننى أكبر..

وأهمس :

ـ وأنا أيضًا .. يتغضن جبينى .

يدها .. أحسها باردة فوق جبينى .. الرأس يهدأ .. تغادره الصرخة .. كأن يدها استلت تلك الجثة التى همدت بسُمّها داخل ساق .. وغادرته .

الزرقة تصبح أكثر نقاوة .. وبهجة .. الكون أصفى .. أنهض .. لا أحس ألمًا فى ساقى .. أجرى .. أركض .. أضرب النباتات اليابسة .. أدوس على الحشائش القاسية المفطومة منذ زمن .. وجهها ينادى .. الألم صار قوّة تطيرنى بخفة . نحو مصدر الصوت العذب الآتى من هناك حيث جسدى الكسول يذوب فى أحلامه . يجب أن أسرع .. أن أواصل الطريق الشائك .. مهما كان شوكه سامًا .. لدغة الثعابين لا تهم .. جثث الموتى لا تحس إذا دسنا عليها .. الليل الذى مضى لا يكترث بنا .. النهار الآتى وحده ينتظر كوجه طفل ينتظر ثدى أمه .. إليه أركض .. ذلك النهار الغائب الذى سيأتى واللحن الذى يغمر الكون .. بأهازيج البراءة .. والسماء الزرقاء والغيمتان المتلاصقتان بحب .. بشهّية .. تؤكد أنهما لن تنفصلا بعد هذا التيه الذى مضى ..

المسافات .. الموسيقى تشق أمامى فضاء رحبًا أدور .. لا أعبأ بالجسد الرابض .. طفلة أعود .. أعارك الطبيعة الصافية .. أستنشق أحلامها الواعية أبدًا .. أتبلل بعطرها المنهمر .. أغتسل .. أمد ساق الملدوغة أزيل أثر السم .. والصرخة الماكرة .. أنفيها من دمى ، من رأسى الشاردة نحو مدينة الرحمة المنتظرة هناك . لا تزال أناملها تداعب أصابع البيانو .. مداعبة أليفة .. قطتها تتكور تحت ساقيها البيضاوين .. وهو يفتح ذراعين .. سيصدع صوته :

ـ الدانوب .. تلك التى تحبينها .. هيّا .

ونصير غيمتين .. تتّسع لها فسحة السماء . أضحك ..

يشدنى إلى صدره ..

أعود طفلة .. أرنبة .. أمزّق أزرّة القميص .. أندس فى صدره .. أنام على لحمه الدافئ .

* * *

زهـرة تدخل الحيّ

دخلت زهرة الحى ذات ليلة لا أحد يعرف من هى ! ولا كيف جاءت ! ولماذا جاءت : ومن الذى أستأجر لها هذا البيت الذى تطل شبابيكه على البحر . رغم هذا ، فُتِحَ للبيت باب آخر من ناحية البحر . كانت زهرة تشرعه فى الليل . تجلس عند بابه . وتسهر . قال جيرانها إن زهرة تعشق البحر . تناجيه مناجاة الخليل للخليل ، تبثه أشواقاً دافئة . تغنى له . يسمعون لها صوتاً حنوناً ، أو صفيرًا ناعمًا ذا موجات كأنها لغة عصافير ضالة .

زهرة امرأة ناضجة فوق الثلاثين . جميلة لها وجه أبيض صاف . مستدير وخدان متوردان يكاد ينفر دمها . وعينان سوداوان واسعتان يحرسهما حاجبان رقيقان أشبه بسيفين حادين . أما شعرها فينسدل شلالاً كستنائيًا يغطى أطراف كتفيها البضين . وحين تبتسم زهرة تنفرج شفتاها عن صفين من اللؤلؤ الصافى . ويبرز فى أقصى فمها طرفُ سنة ذهبية سرعان ما يختفى حين تغلق الشفتين المكتنزتين .

زهرة جميلة . والحى هادئ وديع . بيوته الطينية لاتحمل صدى لأحقاد . الناسُ فى الحى متآلفون . حتى الحمائم على الأسطح تعرف أوكارها . ولا

تتوه . ولا تتغرب . وحين دخلت زهرة الحى . هلعت قلوب النسوة الآمنات لعب الشك فى قلوبهن . ابتدأت السؤالات : هل هى متزوجة ؟؟

إذن ! لماذا تسكن وحدها ؟؟

هل هى أرملة أو مطلقة ؟؟

الخوف يزداد : أم تراها عذراء ستحافظ على نفسها وشبابها ؟

حين عبثت الشكوك والمخاوف فى القلوب . لم تعرف النسوة طريقًا لراحتهن إلا بيت « أم محمد » وقلب أم محمد الذى اعتاد أن يحضن هموم الحى . ويواسى كل مفجوع . ويبارك لكل فرح . يزغرد لسانه وترقص شفتاه ، قلب أم محمد الذى لا يفرّق ، ولا يعرف الكره أو الحسد .

قالوا لها :

ـ يا أم محمد . زهرة فاتنة بابها مشرع للريح زهرة تحب هواء البحر وأزواجنا فيه يعملون . ونحن نخشى عليهم من الفتنة .

بان الضيق والأسف على وجه العجوز الطيب وعاتبت :

ـ تخافون على أزواجكم . ولا تخافون على بحركم .

ـ البحر للجميع يا أم محمد . زهرة تعشق البحر .

لمعت دمعة فى عين أم محمد . طاف حزن كأنه آت من البعيد :

ـ هل تحب زهرة البحر أكثر منا ؟؟ هل تعشق رمله ؟ وريحه ؟؟ وموجه أكثر مما عشقناها ؟؟ هذا البحر بحرنا . هو ذا أمامكم . اسألوه : من عشقهُ ؟ كم قلبًا

نهش . وكم قلبًا أسعد ! كم أخذ منا ؟؟ وكم أعطانا ؟ عظامُ رجالنا صارت له مجاديف . وأعناقهم صوارى . بحرنا لا أحد يعشقه سوانا . أنتم لاتتأملون .

تململت النسوة . قالت إحداهن :

ـ يا أم محمد جئنا نأخذ منك المشورة . ماذا نفعل مع زهرة ؟ كيف نحمى رجالنا ؟ وأنت هداك الله تتكلمين عن البحر . وكأنك تخشين أن تسرقه زهرة وتترك الرجال .

هزت أم محمد رأسها :

ـ هذا ما يتأجج فى قلبى لكنكم لا تعلمون . اذهبوا إذن إلى زهرة . جُسّوا نبضها . افهموا منها ماذا تريد . ولماذا جاءت ! وتفكّروا فى كل ما تقول .

* * *

رحبت زهرة بالنسوة ترحيبًا فاجأهن . قبّلت كل واحدة منهن وكأنها تعرفها من زمن بعيد . سألت كل واحدة عن أحوالها . تلك عن زوجها المريض . وتلك عن ابنتها التى تعثّر حظها . وسألت أخرى عن كنّتها التى لا تحبل . وقررت أن تصف لها علاجًا فرفرف الفرح على وجه المرأة . سألت عن «أبو يوسف» النّجار الذى بترت يده وقبع فى البيت وعن «شيخوه»[1] التى تبيح نفسها للرجال . وأكدت أن الشرف والفضيلة فوق كل شىء . آخر ماسألت عنه زهرة . وبحرص شديد . سألت عن ـ أم محمد ـ وهل مازالوا يلتفون حولها . وتصير شرايين قلبها أذرعًا تضم الجميع ؟ هل مايزالوا يحبونها ويؤمون دارها عند الشدائد والأفراح ؟ فوجئت النسوة بأن زهرة تعرف الشىء الكثير عن الحى ، وأهله .

بادرتها إحداهن :

ـ إذن هذا سبب اختيارك لحينا . سمعت عن ناسه الطيبين .

رفعت زهرة حاجبًا . وبكل الثقة قالت :

ـ فى كل مكان يوجد أناس طيبون . ليس هذا مقصَدى . سمعت أن الحياة هنا أرحب . جئت أبحث عن وضع أفضل .

قالت أخرى :

ـ أو ربما لأجل البحر .

أو مأت زهرة بكفها :

ـ بالضبط . هواء بحركم يناسبنى .

ـ لكنّ الرطوبة عندنا شديدة . تتعب الصدر . وأنت تتركين الباب مشرعًا للريح طوال الليل . ألا تخشين من اللصوص أو الكلاب السائبة ؟؟

ضحكت زهرة باستخفاف :

ـ لصوص ! ! كلاب ! أنا لا أخاف . إذا جاء اللص أعرف كيف أتعامل معه . أما الكلاب ! فلها علاج آخر .

ـ يا زهرة . جئت وحيدة وما تزالين .

فهمت زهرة صيغة السؤال . ابتسمت :

ـ تركت زوجى .. وأولادى هناك ربما يأتون .

ارتطم الخوف بقلوب النسوة . إذن . لها زوج بعيد وهى جميلة .

وأزواجهن لهم عيون فتانة وأيضًا لهم طباع النمل الذى يمشى إلى «رائحة الدسم» .

وزهرة ! يالها من امرأة !

أحست بما فى العيون من رعدات ، فتودّدت :

ـ أنا لا أحب الخروج . ولا الأسواق . ولا زحام الناس . أفضل أن أبقى هنا . ولكن ! !

صمتت . لاح حزن على وجهها . تعاطفت بعض النسوة معها :

ـ لو بقيت هكذا ستشعرين بالوحدة . أنت غريبة . وصرت جارة نحن مستعدات لكل ما تطلبين . والاّ من أين ستعيشين ؟؟

تناغم الحزن فى صوت زهرة :

ـ هذا ما أفكر فيه . زوجى يتأخر حتى يرسل المال . لهذا أنا بحاجة للعمل .

تبادلت النساء النظرات وثارت السؤالات :

ـ ماذا بإمكانك أن تعملى ؟

ـ وأى عمل ستقوم به امرأه جميلة مثلك ؟؟

كان فى السؤالات كثير من الفضول . والقلق . والتشوق لمعرفة الجواب .

قالت زهرة :

ـ أنا أتقن أعمالاً كثيرة . التطريز . الخياطة . عمل الحلوى وبعض الفطائر التى لا أظن أن حيكم يعرفها . وأيضًا أتقن كل ما يهمكن كنساء من أعمال الزينة .

« والحفافة »[٢] ثم أنا امرأة أتقن لغة جديدة . قد أستطيع تعليمها لمن ترغب .

ـ ترغبين إذن فى العمل بين البيوت ؟

ـ هذا ما أريد . أحتاج إلى المال كى أعيش . المال الحلال . وشددت على كلمتها الأخيرة لتبذر الأمان فى قلوب النساء . وتنهدن جميعًا ماسحات على صدورهن :

« المرأة شريفة .. تريد العمل الحلال »

* * *

عدّلت أم محمد من وضع « ملفعها »[٣] الأسود الذى تفوح منه رائحة دهن العود . ومسحت على وجهها . قالت :

ـ انتبهن يا نساء يا طيبات الحى .. أيتها العيون التى لا ترى إلاّ الخير . الفتنة تدخل بيوتكن .

* * *

زهرة دخلت كل البيوت . زهرة الجميلة . أصبحت حديث الحى . سموها « هبّة الريح » لسرعة حركتها . وإتقانها كل عمل تنجزه . ارتدت نساء الحى أجمل الثياب . وتزينت « المطارح والمساند » بالتطاريز . وبالترتر الملون . تجملت وجوه النساء بأصباغ . وتفننت زهرة فى تجديل شعورهن الطويلة . صارت كل البيوت تحب زهرة تطلبها وتكرمها . فكل النساء راضيات . زهرة ذكية . تحرص على ألا تحتك بأى رجل . لا من الأزواج . ولا من الأبناء . إذا دخل واحد منهم فجأة دون أن يتنحنح أو يطلب « دربًا » تثور زهرة يحتقن وجهها وتسب

بكلمات غير مفهومة . تنتصر النساء لها يؤنبن الذى فعل . لا يُرِدْنَ أن تغضب زهرة . وتعاف بيتًا من البيوت . لكن حلم زهرة ظل أن ترى أم محمد .

سألت إحدى النساء :

ـ ألا تريد أم محمد أن أخيط لها ثوبًا ؟؟

قالت المرأة :

ـ أم محمد حريصة على ثيابها القديمة لا تستبدلها . ولا تفرط فيها .

ـ ألا أصنع لها مساند ؟؟ فطائر ؟؟

ـ مساندها « السدو »(٤) أغلى عليها من كل شىء وهى لاتحب الفطائر . تصنع بنفسها « قرص العقيلى » .

ذاب حلم زهرة صارت كل البيوت بيتها . إلا بيت أم محمد . ظل موصدًا .

ولم تثر زهرة أية مشكلة فى أى بيت . صارت محبوبة . كوّنت الصداقات . أصبحت الغريبة واحدة من أهل الحى . ونسى الناس الطيبون تساؤلاتهم ، نسى الناس بيت أم محمد . تحدّثوا عن زهرة . صارت هذه الزهرة كالبيت لهم . داخل أوراقها يستريحون . ومن شذاها يتنفسون ومن بريقها يستمدون كل جديد . وحدها أم محمد تمسح كفًا بكف . ترى .. وتصمت .. وتردد :

« لا حول ولا قوّة إلاّ بالله . »

* * *

حين تُطفأ الأنوار . ويغلق الليل عيونه . تشرعُ زهرة الباب . فيأتى هواء البحر منعشا . تحمل رائحته عطرًا خاصًا تُلَوِّح زهرة بيديها الجميلتين . وحدها

ساهرة عند الباب .. الناس نيام ..

وعيون أم محمد فى الفراش لا تنام .

* * *

ذلك النهار . لقى الناس فى بيت زهرة صبية جميلة . سألوها فقالت :

ـ هى أختى .

رحّبوا بها . غريبة جديدة . هى أخت زهرة المحبوبة . والحى الطيب يحب الضيوف . ويكرمهم .

بعد أسابيع جاءت غريبة أخرى . استأجرت لها زهرة بيتًا على البحر .

ـ من هذه يا زهرة ؟؟

ـ هى ابنة عمى . مات عائلها . جاءت تبحث عن عمل .

وحين دخل البيت شاب جميل . يقف الصقر على زنديه قالت زهرة :

ـ لا تنزعجوا . إنه زوج أختى . يتقن أعمالاً كثيرة ولكن !

واهتزت قلوب النساء :

ـ ماذا يا زهرة ؟؟

ـ يريد بيتًا قريبًا منى . ولا أجد .

لم يدم حزن زهرة أكثر من أسبوع . كان صاحب أحد البيوت يترك بيته ويؤجره .

كثر أقارب زهرة . يأتون . لا أحد يتساءل كيف يأتون . وأى ريح تحملهم . الحي غارق فى طيبته . وفى الترحاب . اليدُ الآتيةُ «تسد العين» تعمل . تنتج .

وتبدع . لا تكل ولا تتذمر . لا تكره أن تُؤمر فتطيع . الكل يشكر زهرة التى تكرمت على الحى . فيكرمونها .. أى بيت تختاره زهره يفرغونه . للأنساب . ثم دفعت زهرة مبلغاً كبيراً واشترت البيت . وحذا حذوها كثير من الأقرباء . امتدت بيوتهم على طول الساحل . ولكل بيت باب يشرع . لأن هواء البحر الذى يناسب زهرة يناسب كل الأقرباء والقريبات . الذين صاروا من أهل الحى . من صلب الحى . وأحبهم كل الحى .
وحدها أم محمد . تضرب كفاً بكف . ويبرعم الخوف فى صدرها تتنهّد :

«لا حول ولا قوة إلاّ بالله . لقد باعوا البيوت» .

استيقظ الحى ذات يوم على صدى النواح . كانت النساء الغريبات متشحات بالسواد . سيولاً .. تصب فى بيت زهرة . تساءل الحى ما الخبر؟؟

جاء الجواب :

ـ مات لزهرة عزيز

وفى بيت زهرة ولولت النسوة وضربن على صدورهن وخارج بيتها سكن الرجال . وبكوا .

عشرة أيام متتالية والحزن الأسود يعرّش على الحى . حزن له لون خاص . وعطر خاص .

تعطل الحى . وقبعت نساؤه فى البيوت فكّرْنَ أن يذهبن لبيت أم محمد .

استقبلتهن وفى الخاطر عتاب :

ـ طالت غيبتكن .

ـ شغلتنا الحياة يا أم محمد .

ـ بل شغلتكن زهرة . .

ـ نحن نحبك يا أم محمد . ولا نستغنى عنك . ولا عن مشورتك .

ـ ما الذى يقلقكم ؟

ـ الحى معطل . الرجال الغرباء على الساحل يبكون ، والنساء فى بيت زهرة يُولولن . لا نعرف معنى لهذا الحزن يا أم محمد .

ـ لتعرفوا أن لكل حزنه . أحزاننا غير أحزانهم . هذا العزيز الذى مات سيحزنون عليه كل مرة عشرة أيام . ونحن ندفن موتانا . تؤمنهم الله . ونترحم عليهم ونكره الحزن . والسواد .

ـ كل البيوت سوداء يا أم محمد .

ـ كانت بيوتكم لكنكم بعتموها صارت الآن لهم لا يحق لكم الاعتراض على ألوانها .

وتنهدت أم محمد .

سمعت النسّاء تنهيدتها تشق صدرها . وتفر إليهن . همسات تخرج من أفواه النساء . فيها ندم .. وفيها خوف وفيها تردد فى السؤال :

ـ ماذا نفعل يا أم محمد ؟؟

ومن قلبها نبعت أذرع حنان . شبكت النساء إلى صدرها . قالت ولغتها أغنية تصدح :

ـ أنتم أبناء حيىّ . أهلى . وناسى . أعرفكم فكونوا حذرين . اغلقوا البيوت دون كل غريب . واحضنوا البحر الذى من مائه تشربون .

بكت النساء

بكت أم محمد .

اختلط ملح الدموع . صار حبة لؤلؤ تُذكّر بوجه ذلك البحّار القديم الذى صنع السفينة .

* * *

منذ دخلت زهرة الحى . وعيون أم محمد ساهرة قلقة لكنها الليلة غير كل الليالى . لقد جاءتها نساء الحى . وقد بدأت عصافير الخوف تبنى أعشاشها فى قلوبهن . وقلوب رجالهن . جئن يفتحن القلب . والجرح . فتسيل الأحزان وتفتق القلق . أكثر فى عينى أم محمد .

هم ناسى .. وأهل حيى . هم أولادى . يأسفون بعد الخطأ يطلبون مشورتى .. وآه .....

صفقت كفًا بكف :

ما باليد حيلة ياعيالى .

حملها الأرق إلى البحر . هجعت على رملة . خلعت ملفعها وانسدلت ضفائرها الشائبة حبلاً حنونا يَوَدُّ لو يضم الشاطئ كله إليه .

امتد بصرها الضعيف إلى البعيد . تذكرت زمنها الراحل . والدها الذى كان يأتى بعد سفر طويل يحمل رائحة البحر ضاحكًا لِنصر .. أو عابسًا لفشل .

وزوجها الذى تبع أباها وركب البحر . عشقًا ينتقل بالدم . تحس هواه يسرى مع النسمة داخلها . تتنشق روائح « الغاصة »(٥) . وتسمع صدى زغاريد النسوة وفرحة العودة . المراكب البيضاء تلوح أشرعتها وترقص . من هنا كانت تجىء لا من هناك .. والبحر واسع يتلألأ تحت شعاع القمر وعينا أم محمد تعانقانه . وتنزرعان فيه كأنها تصل إلى العمق . لونه تحت الضوء الحانى صافيًا .. وهى تتابع موجه تتابعه .. تتابعه .. و .. ماذا هناك ؟

عيناها تصطدمان بأشياء تتحرك .

استقامت أم محمد . لملمت جدائلها الشائبة وغرست النظرة الضعيفة صارت نظرة صقر . مراكب تدنو . ولا تصل ، هى تراها تنزف خيالات متحركة . تندلق فى الماء . يتطاير الرذاذ . أسماك تلك أم حوريات ! أم تراها شياطين ؟ خفق قلبها . وانهار جسدها الطيب إلى الرمل ثانية . توسدت ذراعها . قالت :

– لن أتحرك سأرى ما الذى يجرى فى البحر . أى ريح تأتى وأى شىء تنزفه ؟ الخيالات تتحرك هارعة إلى الشاطئ . ثم خطوطا خطوطًا .. إلى الأبواب المشرعة .

قناديل حمراء تتدلى تعابثها الريح الخفيفة وحين تدلف الخيالات تطفأ القناديل . وتغلق الأبواب .

* * *

فى الصباح .. وجد الناس باب بيت ام محمد مشرعًا . انهمروا إليه . هم يعرفون أن أم محمد لا تشرع بابها إلا إذا كان لديها أمر تود الإفصاح عنه .

أعلنت أم محمد عن كل مارأته . وأنبلجت العيون خائفة غير مصدقة . لكن الناس ما اعتادوا منها الكذب . ولا الخداع . هى أمهم الكبيرة . وهى القلب الأليف الذى إليه يهجعون .

كل الآذان أُشرِعَتْ للخبر الكبير. حتى آذان زهرة . والأقرباء .. ثارت ..ثاروا .. صرخت فى الناس :

ـ أم محمد خرّفت .. مجنونة .. تحلم ..

وصرخت مرة أخرى :

ـ إنها تتبلّى علىّ وعلى ناسى .

صَدّ عنها الناس . حملت جسدها الرائع وثورتها وذهبت إلى بيت أم محمد تبعها الأقرباء الكثيرون ملأوا الشوارع بالهياج .. وبالصياح .

وقعت عينا زهرة على بيت أم محمد .

هى المرة الأولى !

خرجت أم محمد هادئة . واثقة . مبتسمة . شعاع منير ينبع من كل الوجه الذى اعتاد الطيبة . وعاش فى سلام . رفعت ذراعها لتوقف السيل . فتدلى كُمّ ثوبها المشغول « بالزّرى » [٦] التمعت عليه أشعة الشمس. أثار وهجًا نقاطًا ذهبية شعت فى المكان . وعلى الوجوه الحاقدة كسرت الأشعة العيون . لكنها لم تكسر اللسان . صرخت زهرة فى وجه العجوز بكلمات فاسقة. فوجىء أهل الحى. كأن الصرخة لطمت كل الوجوه . تجمعوا حول أم محمد . حول جدران البيت الطينى التصقوا يحمونه . وبعضهم وقف سدًّا .

كانوا قلة كانت زهرة والغرباء أكثر. لكنهم وقفوا ، هيأوا الأذرع لتدافع عن أمهم .. وجدار البيت .

شتمت زهرة. عيرت أم محمد بعجزها. عيرت أهل الحى الذين استكانوا وتعالوا .. عيرتهم بسواعد الأقرباء التى تعمل .. عيّرتهم بكل جديد جاءت به إليهم . عيّرتهم بأنها بأموالها غيّرت .. وبدلت فى الحى . وفى البيوت .. لم تأت أم محمد بحركة .

لم تبك .

لم تلطم خديها .

لم ترد على السباب ... ولا التجريح . كل ما يحدث أمامها .. وما يقال . كانت تعلم أنه سيحدث . لكنها لم تستطع أن تقنع الناس به .

النساء باهتة وجوههن ، والرجال كاظمين الغيظ ولكن ! حين صرخت زهرة مهددة :

ـ سأطردكم من هذا الحى .

اشتعلت الثورة فى النفوس . صرخوا بصوت واحد :

ـ سنطردك يازهرة .

هزت ضحكتها المكان .

تطلع الناس إلى وجه أم محمد الباكى بصمت .. تابعوا نظرتها الحزينة .

كانت تعد البيوت الممتدة على الساحل .. وتابعت كل العيون .... كل البيوت .. كلها .. ليست لهم ....

وهزّت أم محمد رأسها .

* * *

(١) شيخوه : اسم علم لامرأة . وأصله «شيخه» .

(٢) الحفافة : إزالة شعر الوجه والحاجبين .

(٣) ملفعها : غطاء الرأس لكبار السن من النساء ولونه أسود .

(٤) السّدو : أعمال اليد البدوية .

(٥) الغاصة : الغواصين .

(٦) الزّرى : خيوط القصب المذهبة التى تزين ملابس النساء .

وحـــده الـظّلُّ يبـقـى

لم يكن « محيسن » أعور . لكنهم فى ذلك الحى البعيد عرفوه بهذا النعت منذ تعرضت عينه لذلك الحادث الأليم .

كان صغيرًا . يحلو له أن يُحوّس بين الرجال الذين يتحلقون عند باب بيتهم . يتبادلون الأحاديث ، يسمعون شكاوى بعضهم بعضا ويتداولون شئون الحى . وأحيانا يتحررون من هموم الحياة فتعلو أصواتهم بالضحك حين يطلق أحدهم دعابة ما .. أو يعلق آخر على حادث مضحك خلال النهار .

ومحيسن طفل خَدوم .. وذكى . كان يسرع إذا سمع صوت أمه تناديه من خلف باب البيت لتناوله الجمر المتوقد . فيعطيه بدوره لوالده الذى يقوم بتوزيعه على «كدو»[1] الرجال .

يقال أن محيسن ذات مرة عبث بخرطوم الكدو فانزلقت جمرة ، سقطت على جبينه وأخذت سيرها حتى عينه . فاحترق جزء من جفنه . حملوه إلى « أبو فاضل» الذى كوّر عجينة ذات رائحة غريبة وضغطها على عينه وربطها . وأمرهم ألا يفتحوها وأن يعودوا به بعد أسبوع ليفكها بنفسه .

فى الموعد المحدد رفع أبو فاضل الرباط . فبدت عين محيسن « مشبونة » لا يكاد يفتح جفنها .

صرخت أمه حين رأته وقد تجمهرت أمام باب « أبو فاضل » مجموعة من الأولاد :

ـ ياويلى .. صار الولد أعور .

وطرقت الكلمة أذنه وعشعشت فى فؤاده .

* * *

حين انتقل إلى هذا الحى تصور أن الأولاد فيه لن يفطنوا « لِعَوَر » عينه . لكنهم سرعان ما أخذوا ينادونه به . فيحس بالألم والخجل لكنه لم يكن يجرؤ على معاتبة أمه التى نطقت بالكلمة دون قصد منها ، غير أنه ذات يوم فاضت نفسه بالحزن فهرع إليها شاكيًا ودموعه تتسابق على وجنتيه :

ـ لن أخرج إلى الشارع بعد اليوم .

صفقت على صدرها :

ـ لماذا يا محيسن ؟؟

ـ الأولاد ينادوننى بالأعور . وهذا يؤلمنى .

هاجت . قالت له دون تفكير :

ـ « أولاد الكلب » اسمع . إذا قال لك أحد منهم هذا فخذ حجرًا وأعور له عينه .

وسمع أبوه هياجها فصرخ :

ـ تعلمين الولد الحقد . افترضى أنه فعل وأعمى عين أحدهم فما العمل ؟؟

هزّت يدها :

ـ « بالشيطان » لتعمى عيونهم . أم أنك تريدهم أن يكسروا خاطر الولد ؟؟

أهمل الرد والتفت إلى ولده محذّرًا :

ـ اسمع يا محيسن . لا تسمع كلام أمك . أنت لست أعور وحتى لو كنت فليس عيبًا أن تكون فى الإنسان عاهة المهم أن تجعل الناس ينسون عاهتك . أن تكون إنسانًا جيدًا . شجاعًا . عندها يحبونك . ويحترمونك . ولا يُعايرونك بعور عينك .

سرحت عينا محيسن إلى البعيد . تخطت جدار البيت وأخذت طريقها لا تصطدم بشىء . وعلى شفته لاحت ابتسامة عذبة . يومها .... تعلّم الدرس الأول .

* * *

عندما لمح « جَسّوم » جرادة فى قلب الحفرة صرخ :

ـ الله .. هذه « مكنة »[٢] . سأنزل وآخذها .

حذّره الأولاد :

ـ لا تفعل يا جسوم . الحفرة رطبة . البارحة نزل مطر كثير . سخر منهم :

ـ سأنزل ياجبناء .

وانزلق إلى الحفرة . وماكاد يلقى بنفسه حتى غاص إلى نصفه بالطين فصرخ . سخر منه الأولاد . لكنهم حين بكى خائفا تراكضوا يستغيثون وأصواتهم تسبقهم :

ـ أين محيسن ؟ وحده سينقذ جسّوم .

صدى الصراخ والنداء طرق أذنيّ محيسن الذى كان بجوار والده فى المسجد .

قال فى سره :

ـ الملاعين .. حتى صلاتى لا أستريح فيها . ماذا حدث ؟؟ ركض وغترته المهلهلة تتطاير معه . وصل ، وإذا عيون الأولاد تستغيث . سبقوه إلى الحفره . وهو وراءهم لا يدرى ما الأمر . لكنه حين ألقى النظرة داخل الحفرة . فهم أن الأمر يحتاج لشجاعته حقًا .

صرخ فى جسوم الباكى :

ـ ما الذى أنزلك ؟

تطلع إلى وجوه الأولاد بشكل اتهام . لكنهم تدافعوا :

ـ قلنا له لا تفعل .

ـ لم ندفعه إليها .

ـ أراد أن يأخذ الجرادة .

ـ تصور نفسه محيسن الشجاع .

أسكتهم محيسن :

ـ اخرسوا جميعكم .. هيا .

سحبَ غترته ، أدْلاها إلى جسّوم :

ـ امسك بها جيدًا . وسوف نزعبك .. هيّا .

أمر الأولاد بأن يتحركوا . لكن أحدًا لم يفعل . قالوا :

ـ نخشى أن يسحبنا هو . نصفه مدفون ، والطين غدّار .

بصق على الأرض :

ـ لعنكم الله ياجبناء .

ثم خاطب جسوم :

ـ سأزعَبُكَ وحدى . هيّا .. تشجع .

أخذ ساعداه الرشيقان يشدان ، ولهاثه يعلو وحين ارتفع جسوم قال له :

الآن . ارفع قدمًا واحدة . اسندها إلى جدار الحفرة تعكز عليها وارفع الثانية . وحاول الصعود .

تشجع جسّوم . وخرج من الحفرة . كان الطين يلوث ملابسه . وأقدامه ويديه . اقترب ملهوفًا نحو محيسن ليقبله شاكرًا لكن الآخر ردعه :

ـ إياك أن تندفع مرة ثانية خلف الأشياء الصغيرة . هل أنت مجنون ؟

ـ لن أفعل . ولن أنسى معروفك .

تراكض الصبيان . أصواتهم الهاتفة تتخالط :

ـ عاش محيسن الأعور .. عاش الشجاع .

مسح محيسن على عينه المشبونة وتنهد سعيدًا وفى داخله كان السؤال يلح بلهفة :

ـ ترى : هل سيصل الأمر أمّونة ! !

* * *

يوم شبت النار فى بيت « صالحة المجنونة » لم يكن أحد فى الشارع . محيسن وحده كان يمر صدفة . وقد أرسلته أمه إلى بيت قريب ليحضر لها « مُلْمُصًا » [٣] . شاهد صالحة المجنونة يتدلى لسانها الأحمر وقد هبت مذعورة إلى الشارع عارية القدمين مشقوقة الجلباب :

ـ حريقة .. يا الأجواد .. حريقة .. بقرتى تحت العريش ، ستأكلها النار .

نسى محيسن ما أوصته أمه والتقط طابوقة أخذ يطرق بها أبواب البيوت المغلقة ، فتراكضت نسوة .. وصبية جاءت لهم أوامر أمهاتهم :

ــ أسرعوا .. أخبروا الرجال .

محيسن لم ينتظر . دخل البيت . خطوته السريعة تتجه إلى العريش كان خوار البقرة يأتى مذبوحًا . النار تلتهم بعض القش والأخشاب المتراكمة فى الزاوية ويعلو دخان أسود .

لفّ محيسن غترته حول رأسه . دفن وجهه ما عدا عينه السليمة . اندفع إلى مربط البقرة . وفكه بسرعة وشجاعة . ثم سحبها وراءه وخرج بها إلى الشارع . سلمها لصالحة . تحول رعبها إلى فرح . أمسكت بمحيسن . حاولت أن تقبله لكنه سحب نفسه من بين يديها وانفلت إلى بركة الماء فى الحوش يزعب منها ويصب على النار .

لكن النار الجائعة امتدت إلى سقف العريش ولسانها الأحمر ظل يفح ولا يفيدها الماء القليل . فجأة ... طرقت الأسماع أجراس سيارة الإطفاء .فترك محيسن الدلو وخرج مستريحًا ينظر إلى صالحة تحتضن بقرتها الوحيدة بفرح . بينما سؤال ملهوف يتكرر بداخله : هل ستعلم أمونة بما حدث ؟؟؟

* * *

ذاعت فى الحى والأحياء الأخرى شجاعة محيسن . تكررت له مواقف كثيرة . اعتمد عليه كثيرون فى أعمال تكاسلوا عن القيام بها . وكان لا يتذمر ، بل يشعر بالزّهو والفرح لهذه الثقة غير منتظر لشكر أو مكافأة من أحد .كل ماكان

يهمه هو أن تصل أخباره إلى أمونة . وحين يداعبه هذا الأمل ينسى عينه المشبونة ويتطلع إلى الأفق البعيد وكأن شعاعًا من الأمل يلوّحُ لهُ وحده .

* * *

ذات عصر تحلّق الأولاد . ضحكوا .. تحدثوا .. تباروا فى الوكض على قدم واحده . وفى لعب « التيلة » . وكان محيسن يتفوق ، وفى كل مرة يذكرهم :

ــ الأعور غلبكم .

فتحمر وجوههم خجلاً ويبتسمون :

ــ يا محيسن . نحن لا نقصد أن نعايرك .

يرد على ابتسامتهم :

ــ أنا لا أزعل . أعور .. أعور . المهم أننى أرى .

ويرون عينه تسرح فيصمتون .. يتطلعون إلى وجهه .. إلى عينه المشبونة التى تعانق باب بيت أمونة فى آخر الشارع . يتركونه سابحًا فى حلمه . يتبادلون نظرات ذات معنى . ثم يلكزه أحدهم فى ذراعه :

ــ تحبها يا محيسن ؟؟

يخفض بصره .

يقول آخر :

ــ هى ليست جميلة .

يرفع رأسه محتدًا :

ــ أنفها طويل .

ــ خلقة الله .. هل تعترضون على الله ؟؟

ـ يا محيسن . يقولون أنها لا تزال تتبول فى فراشها .
يدافع بشدة :
ـ كذابين . من قال لكم ذلك ؟
ـ الناس كلها تعرف . يدخلون إلى بيتهم فيشاهدون فراشها منشورًا تحت الشمس تفوح منه رائحة عطنة .
ـ هذا لا يعنى أنها تتبول . الرطوبة تعطن كل شىء . حتى أفواهكم .
ـ نحن لا ندرى لماذا تحبها يا محيسن . رغم أنها متعالية ومغرورة .
ـ أحبها لأنها أم الخير . سمعنا أخبارها ونحن فى حيّنا القديم . قالوا أن يوم ولادتها كان يومًا عجيبًا . تفجرت السماء بالمطر ، فاخضرت الأرض ، وزاد الخير ، وتكاثرت الماشية ، وانتعش الناس بعد سنوات من الجدب مرّت . وبعد ضيق عانوا منه . فكيف لا أحبها ؟؟
ـ كثيرون هم الذين يحبونها يا محيسن . وهى لا تميّزك . وربما لا تحبك .
يبتسم ابتسامة حزينة :
ـ لا يهم يا أولاد . المهم أن أحبها أنا . أن أتذكر دائمًا أنها مصدر الخير الذى جاء حيّكم والأحياء الأخرى وصدقونى . لو طلبت أمونة حياتى فسأموت لأجلها .
ضحك الأولاد هازئين :
ـ لهذه الدرجة تحبها .. إنك مجنون .
هبّ واقفًا :
ـ قولوا ما تشاءون «أمونة» تستاهل الحب .
ومشى .. عيناه ترفرفان نحو البيت . فى قلبه كان ثمة رجاء أن تبقى . حتى وإن لم يهمها بقاؤه .

تابع الأولاد خياله حتى ابتعد . وتداولوا الحديث :

ـ هل معقول أنه يحبها كل هذا الحب ؟؟

ـ يقول إنه مستعد أن يموت لأجلها .

ـ كذاب .

دافع آخر :

ـ لأ .. محيسن صادق . إنه شجاع .

ـ إذن ! نمتحن صدقه وشجاعته .

* * *

فى الليل ، تحلقوا ثانية قالوا له :

ـ يا محيسن .. بعد ذهابك خرجت أمونة . قلنا لها عن حبك واستعدادك للموت لأجلها و....

خفق قلبه ، تهلل وجهه أكد :

ـ أى والله أنا مستعد .

ـ لكنها يا محيسن لم تصدق . قالت إن كثيرين يقولون مثل هذا الكلام ولكنهم لا يفعلون .

هزّ كتفيه :

ـ هى حرة .

ـ لكننا يا محيسن لم ندعها تشك بكلامك . أكدنا لها أنك صادق .

تنهد :

ـ الحمد لله . صدقت إذن .

ـ لا يا محيسن . لقد اشترطت شرطًا لتصدق .

قفز من مكانه :

ـ بالله عليكم .. ما هو شرطها ؟

ـ قالت إذا كان يحبنى حبًا صادقًا فليأكل الزجاج .

ارتخى جسد محيسن . أحس وكأن سكينًا حادًا يطعنه . هذا شرط غريب . هل يعقل أن تكون أمونة وجه الخير قاسية إلى هذا الحد حتى تشترط شرطًا كهذا ؟

خرج السؤال من فمه وقد انتفخت جفنه المشبونة :

ـ آكل الزجاج ؟؟

أحس الأولاد بغصّته وذعره :

ـ ها .. لن تقبل شرطها بالطبع .

لمح شماتة تطل من عيونهم ونظرات تحد تكاد تصفعه منتصرة عليه . فقرر فى لحظة شجاعة ألا يتراجع :

ـ بل أقبل شرطها .

شهق الأولاد :

ـ هل أنت جاد فيما تقول ؟؟

قال بثقة :

ـ كل الجد .

ـ ومتى ستفعل ؟؟

ـ متى شئتم .. على شرط أن تبلغوا أمونة .

و .... وعده الأولاد بذلك .

* * *

دخل البيت واجمًا على غير عادته . انزوى فى طرف الغرفة يعابث أطراف قدميه ، يفتت بعض الطين الذى علق بهما . وفى ذهنه تتبارى سؤالات وظنون . وفى قلبه يتوقد حزن كبير طفحت آثاره على وجهه . ولا حظت أمه ذلك . فاقتربت منه بحنان :

ـ مابك يا محيسن ؟؟
ـ لا شىء .
ـ هل عايرك أحدهم بعينك ؟؟
ـ لم يعد أحدهم يفعل . إنهم يسموننى الشجاع .
ـ إذن ما بالك حزينًا هكذا ؟؟

تطلع إلى وجهها الحنون . ود لو يقفز إليها ويرتمى فى أحضانها ويعترف لها بأنه يحب سواها ويتعذب . وأن ثمنا للحب مطلوب منه . وأنه سيفعل .

كاد لسانه يسعفه لولا أنه تذكر مدى حبها له . وأنها لو عرفت فستثور وتخرج فى الغد إلى الأولاد تشبعهم ضربًا . أو ... ما يدريه فقد تذهب إلى بيت أمونه وتخبر أهلها فتفضح البنت . وتهب زوبعة فى الحى لا يسكتها إلاّ الدم . طمأن أمه . واستكان فى فراشه ، مرارة فى داخله ترسم جذورها وأوراقها على صفحة وجهه وأمام عينيه تمر صور كثيرة .

بريق الزجاج الذى رضى بأن يأكله ليؤكد حبه يتوهج أمامه فيرتعد . وجوه الأولاد التى نطقت بالتحدى لشجاعته ، هل يدعها تنتصر عليه ؟؟ وجه أمونه الأسمر الذى تدفقت مع إشراقته كل الخيرات هل حقًا سيفعل ؟؟ قد يكون الموت ! !

لا ... لن يفعل ... ليذهب الأولاد إلى الجحيم .

لكن ماردًا استيقظ فجأة يؤنبه ، ووجه أمونة يشرق كشمس الحياة .

ـ يجب أن أفعل . لو خانتنى الشجاعة مرة فإن ثقة الأولاد بى ستنهار . وستفقد أمونة أملها بى . كما فقدته بكل من يقولون ، ولا يفعلون .

* * *

حين غابت الشمس اجتمعوا . وما أن لمحوا محيسن قادمًا حتى تقافزوا من أماكنهم غير مصدقين . اقترب مزهوًا مبتسمًا :

ـ ها .. هل نبدأ ؟؟

تطلعوا إلى وجوه بعضهم ، عجب يفوح من النظرات التى تركزت على صرة يحملها محيسن .

جلسوا .

تربّع محيسن بينهم . حلّ الصرة .

ـ ما هذا ؟؟

فى صوت واحد نبع السؤال .

أشار بيده إلى الأشياء :

ـ كما ترون .. تمر ، قطعة زجاج . و.. هاون .

لم ينتظر سؤالات أخرى . أخذ قطعة الزجاج وأسقطها فى الهاون الصغير . وبدأ يدقها حتى نعمت . وضع بين اصبعيه قليلا من المسحوق ، عرضه عليهم :

ـ ما رأيكم هل يكفى هذا ؟؟

لم يردوا عليه ، كانوا مصعوقين فى انتظار ما سيفعل ، ألقى على وجوههم نظرة تحد . ثم أخذ يفتح التمر ، يسحب منه النواة ويلقيها . وحين انتهى بدأ يعجن التمر بالزجاج . يصنع كرات صغيرة حتى اكتملت لديه سبع كرات تطلع اليهم :

ـ هل تأكدتم الآن أن الزجاج داخل التمر؟؟

أومأوا برؤوسهم . قال صبى :

ـ هل ستأكلها حقًا ؟؟

قال بشجاعة اعتادها :

ـ طبعًا .

صاح آخر :

ـ لا يا محيسن .. لا تضر نفسك .

رقص خوفهم :

ـ الزجاج صار ناعمًا .. لن يضرنى .

اعترض آخر :

ـ لكنه زجاج . سيمزق مصارينك وما يفيد أن ......

قاطعه محيسن :

ـ مهما يكن . ما دامت أمونة قد اشترطت فسأفعل . عندما تأكد للأولاد إصراره الشديد أصابهم الهلع ، ارتعشت قلوبهم . لقد أرادوها مزحة صغيرة لكنه صدقها . وسيجازف بحياته . خافوا عليه ، الشجاع الذى كثرت أفعاله قد يموت فعلاً .

ابتعدوا عنه . أخذوا يتشاورون . ثم ركضوا نحوه . شكلوا دائرة حنونة :

ـ يا محيسن . لا تفعل .

حاصروه . شدوا على جسده . حاولو أن يأخذوا كرات التمر المشحونة بالموت . لكنه بشجاعة وقوة تخلص منهم وأصواتهم تعلو :

ـ يا محيسن .. لقد سخرنا منك . أمونة ما قالت أى شىء ، نحن اخترعنا الكذبة لنختبر مدى حبك لها .

لم يصدق :

ـ كذابين . أمونة اشترطت . لكنكم الآن خائفون .

ـ يا محيسن ، لا تضحِّ بنفسك . نحن نريدك بيننا . لقد علمتنا ألاّ نندفع وراء الأشياء الصغيرة .

فبرقت فى عينه أشعة حادة :

ـ ولكن الحب ليس شيئا صغيرًا . وبالذات حب أمونة أم الخير .

حاولوا أن يقنعوه :

ـ إنها لا تعلم بحبك .

رفع رأسه عاليًا . فتح عينه المشبونة . قال بثقة :

ـ ولكنى أحبها . وهذا يكفى .. هيا .. عُدّوا لى من واحد إلى سبعة . رفضوا... صمتوا .. ولم يحرك الصمت إلا صوت جرش الموت تحت أسنانه . مات الأعور .

وحين تحلق الأولاد حوله كانت سحابات صفراء ترتسم على وجوههم . وهم يلقون عليه نظرتهم الأخيرة .

لاحظوا أن عينه المشبونة كانت شبه مفتوحة . ومنها يطل ظل ابتسامة .

استمر بعد ذلك يلازمهم كلما مروا أمام بيت أمونة . ولم يجرؤ أحد منذ ذلك اليوم أن يعلن حبه لها .

* * *

إشارات :

١ ـ كدو : الأجيلة .

٢ ـ مُكُنَة : أنثى الجراد . أما الذكر فيسمونه ـ عصفور ـ .

٣ ـ ملمص : أداة معقوفة تستخدم لإخراج الدلو من البئر .

رأســان .. وجســد

هو ذا النور يأتى معربدًا يخترق العين كسهم أزرق ما تكاد تبتلعه حتى يرتد من حيث جاء كمجنون تطارده عاصفة من الأيدى .. يعود مرتطمًا بالجدار فيتعانق والضوء الأحمر .. ينفرشان على السقف كطرحة عروس .

أميل إليه .. أهمس :

ـ هل سنبقى طويلاً ؟؟

يشد على يدى :

ـ استمتعى بوقتك .. الليل طويل .

ـ أكاد أختنق

ـ سيبدأ الآن استعراض الضوء .

* * *

تتحول الألوان مستطيلات متداخلة .. تتفرع منها مربعات .. تكبر .. تكبر .. وحين تمتد نحو الجدران المغلقة بأرق أنواع الورق .. تتحول إلى دوائر

وتعود ثانية إلى السقف .. ثم تنزلق إلى الأرض اللامعة بشكل حبات .. من الزُمرّد .. تدوسها أقدام الراقصين فتنتفض ثانية ترفض الذل وتعلو إلى السقف .. تصير أنياب ثعابين تواصل زحفها على كل الأطراف . تلعق ألوان الوجوه وتضفى على أزياء النساء بريقًا يغيّر ألوانها فتصير أزهى وأجمل .. أما الشفاه المصبوغة فتكشف كل شفة منها عن مطلب شهوانى .

أتململ .. أعيد الهمس :

ـ شفتاى جافتان .

ـ بلليهما بالماء .

ـ الماء بارد .. والجو خانق .

مال محتضنًا كتفى :

ـ ياحبيبتى .. استنشقى ليدخل الهواء إلى صدرك .

* * *

صدرى محروس بشال من الحرير ..

وتلك الصدور التى أمامى شبقها ينفر .. وآهاتها تشق الثياب .

ـ لو كنا فى مكان آخر ..

ـ هى ليلة وتمضى .. لا تفسدى على نفسك المتعة .

متعة ؟!!

ما المتعة فى أن أراقب هذه الألوان الصارخة المستغيثة التى تهاجم العين لتخطف البصر؟؟

ما المتعة فى أن أراقب هذه الصدور العارية المأسورة بالعقود وبالسلاسل ؟؟

من أين جئن بهذه المصاغات ؟؟

كيف تتحمل أعناقهن هذا الأسر؟؟

ولماذا يتمادين فى استعراض كل ما تحفل به خزائنهن ؟

كأننى داخل زنزانة حديدية .. يهطل أننى عرقًا .. تفوح من الراقصين روائح مرشوشة بإسراف تحت الآباط وخلف شحمة كل أذن .. وما بين الساقين مخلوطة بروائح الجسد الذى لا يستحم إلاّ فى مناسبات كهذه .

تبتلع رئتاى الروائح .. وعصير الدخان المتطاير .. تتغذيان بالعرق .. وفوح الكؤوس المنوّعة .. وبوح الكلمات الملجمة الراغبة فى الانفعالات .. لكنها تخرس داخل حلوق أصحابها .. فتفوح لغة أخرى ..

أنامل تتشابك بعرقها ... عرق عزّ مفاجئ .. وخدود تتلاصق ألوانها .. وعيون تتناجى مناجاة محروم .. الموسيقى هنا تصادر كل صوت .. فيصير لكل شيء عشقه الخاص .. حتى سيقان النساء الملمعة التى تبتلى برعشات تسرى حتى لتكاد تصل بهن إلى قمة النشوة .

أحرك ساقى الباردة .. ألامس ساقه القوية :

ـ هل نتحرك ؟

ـ لا يجوز .

قالت عيناه بعتاب واضح أخرس عندى كل رجاء .

* * *

لا رجاء ...

ولا أمل فى المحاولة ...

استسلمت ..

أخذت أتابع المشاهد أمامى .. الخدم يحومون حول الطاولات كالدبابير .. تحط أكفهم فوق الصحون تهيل أشكالاً من المقبلات .. ترفع كؤوسًا .. تملأ كؤوسًا .. تمسح أطراف صوانى الخضار الطازجة .. لم يكن هذا موسم بعضها لكنها جاءت . فكم دفعوا ثمنًا لها ؟؟ ومن أين جاء الثمن ؟ كل شيء متوفر هنا .. حتى «لبن العصفور» الذى تحلم به صبيات اليوم كمهر يقدم لأب جشع يهوى صفقات البيع .

الضوء يداعب المكان بشراسة يغزو كل بقعة بتحد وقح ... والصدور والهة ..... لحمها بارز كبضاعة خاسرة تبحث عن مشتر جائع ... الجرسون يقترب ...

يدس فمه ذا الشفة الغليظة داخل أذنى :

ـ الطلب سيدتى ... سكالوب ...؟ ستيك ....؟ تقفز جسدى ....

إحداهن تقترب من طرف البيست .. تدور بجنون وهى تراقص رجلها كبقرة « صارف » فيبدو فخذاها المشحمان .

الجرسون يكرر سؤاله مصطنعًا الأدب .. فأنتبه إلى أن فمه لا يزال يحاصر أذنى .

ـ هيه ... لحم ماذا ؟ بقر؟ ضأن .. أو أرانب ؟؟ سألته .. فضحك ببلاهة
.. تعود أن يفهم رواد هذا المكان الرفيع ماهو الأسكالوب ! والفيليه ..
و .. الستيك .. وأنا بلهاء إذ أوجه له هذا السؤال .. لكنه يرد وكأنه يمنحنى
فرصة معرفة شىء جديد .

ـ ستيك عجل ..

هززت رأسى :

ـ طيب ... ستيك .. لكن سوّه جيدًا .

* * *

بانتظار اللحم ....

لحم شفتى بين أسنانى ...

ترى ؟! أى لحم سيأتى به ؟؟

لقد تاجر بعضهم بلحوم الحمير .. والقطط الضالة والكلاب السائبة .. وفى هذه الدنيا هناك من يذبحون بعضهم بعضًا .. وقد يعجبهم هذا النوع من اللحوم .. من يدرى مالذى سيدخل معدتى هذه الليلة ؟؟؟

* * *

الليل أحسه طويلاً شاقًا .. وجسدى مستسلم رخو يتراقص عليه الضوء العنيف ، من هنا يأتى كأنه سيف يبتر الذراع فأهتز .. من هنا يضغط على الصدر ... فأتصور أخطبوطًا عشق صدرى فجأة .. وجاء يصادره لنفسه وهاهو

ذا ... بنفسجيًا كلون دم معتق يأتى من الأعلى .. خطًا رفيعًا حادًا ينصب على رأسى فيشقه ... فينشطر كرغيف ساخن .

* * *

صار لى رأسان ... يستندان على رقبتى الصلبة الثابتة على جسدى ...

ينفصلان شيئًا .. فشيئًا .. يتابع الأول بنظراته الضوء البهلوان ... يتسلى بالنظر إلى الجماعة ، يرضى بحصار الواجبات الاجتماعية . هذا السلك الشائك الذى لو فررت منه لتمزقت أواصر الصداقة . بينما رأسى الثانى يطوف بأحلام الهروب .

فى هذا الكهف ... تموت الحياة ...

سنابل الشمس لاتدخل .. لا تطرد جراثيم البذخ والعهر السارية ... فيستشرى المرض فى الصدور ، فى الضمائر .. فى الأجساد .. فتنتعش اللذات وتنتصر الشهوات .. وتقرر النساء الهاربات ألا وقت لتربية الأطفال .

تتوتر أعصاب رأسى .. يميل على الرجل الذى يغرق فى يقظة السبات :

ـ هل سنبقى طويلاً ؟؟

ـ نحن مدعوّان ولا يجب أن ننفصل عن الجماعة .

* * *

رأسى المفصول يتمرد .. يبغى انفصالاً عن توأمه .. يبدو الاشمئزاز من الأشكال الضوئية المرعبة رغم روعة تكويناتها واضحًا على قسماته يؤكد لنفسه :

«كل هذا لا يريح . الحياة فى الخارج رعشة يومية لذيذة فلم الانتظار؟؟»

يتلفت رأسى .. يخشى أن يلمح أحد الفكرة فى داخله .. لكن عيون الجميع وعقولهم سابحة فى أجواء المكان .. هائمة بروائحه الممتزجة . ينتهز رأسى الفرصة .. ينفك عن الآخر .. ينسل من على رقبتى إلى الأرض .

* * *

رأسى ينتبه لرأسى الهارب ... يتابعه وهو يسير متعثرًا بين الطاولات المزكومة باللذة .

رأسى يشفق على رأسى .. يخشى أن يفقد السيطرة على نفسه فيتعثر .. وتدوسه أقدام الراقصين .. أو أحذية الرواد الذين مازالوا يتهافتون على المكان .

أحذية الخدم السريعة ترحم الرأس .. توسع له الطريق . بعضهم يداعبه .. بعضهم يبتسم له مودعًا غابطًا العين التى سترى ضوء الفجر .. أحدهم يدس فى ثغر الرأس قطعة لحم .. لكن الفم يلفظها .. يكمل سيره ورأسى الأول قلق يتابع الخطوات .. يخشى أن يقع توأمه بين أنياب الرجال .. أو فتنة النساء أو تتسلط عليه جنيات الليل .. أو تلمسه أطراف زهرة فتغريه بعطرها فيضل طريقه .. لكنه سار واثقًا .. مرحًا جبارًا يحمل فرحة .. يطير بحرية نحو الباب المخملى .. يدفعه .. و .... يهرب .

* * *

هرب رأسى ...

يحسده رأسى الآخر الذى يئن تحت سيطرة الضوء المجنون .. يأكلنى الكرسى

المخملى .. كأن آلاف الديدان قد ولدت فيه .. تتيشق فى رأسى فكرة ... تلتمع كالتماع البرق فى ليلة شتاء مفاجئ ..

أتلفت .. أخشى أن يثير البرق شهوة الاستفسارات فيخمد التمرد الذى ولد .. تمرد يدعونى أن أطلق هذا الجسد المدفون إلى ساحة رحبة ... إلى حيث كركرة العصافير العاشقة .. وزغاريد النهار الذى يولد الآن ..

أرفع كفىّ إلى عنق .. أتحسسه بحذر .. ثم أرفعها إلى قمة الرأس . أهزها ....: أنزلق إلى الطرفين .. أحرك أتأكد أن فتحة العنق توسعت قليلاً بعد أن انفصل الرأس .

أفرح .. أمد أصابعى الرفيعة .. أدسها فى فتحة العنق أوسع ... أوسع ... أوسع .

أزلزل الرأس ... يزداد الاتساع .. تصير فتحة عنق مهبلاً طريًا فى لحظة ولادة يتوسع كلما مارست أصابعى عملية طلق صناعى له .. أرخى .. وأشد .. أرخى وأشد . لم يبق الكثير .. هاهى طلقة أخيرة .

ويولد الرأس كطفل يتيم .

أمسك به بكفى .. لا أثر لخدوش .. ولا قطرات دم .. ولا بقايا مخاط .. أنظر إليه بإشفاق .. ازرعه فى كف واحدة .. كطفل أبله .. بالكف الأخرى أوسع مكانًا على الطاولة المليئة بعشرات الأصناف المتخمة بالدهون ... أضعه فى المكان .. أداعب شفته برقة .. أمسح على شعره .. وأودعه ..

انفلت جسدًا بلا رأس .. لاحقة برأسى الهارب إلى الحياة .

هى ذى الحياة يصدح فجرها .. بدأ الليل يتجشأ ظلمته .. بدت المدينة كعروس خجلى تحت ضفائر الفجر المتناثرة .. تفوح رائحتها عذرية كأن الليل لم ينتهكها بعد . تتفتح بشائر الصباح شيئًا .. فشيئًا .. كأوراق وردة .. تتمطى بين ذراعى عاشقها .. وتهب نسيماتها الطرية هبوبًا رقيقًا يلفح الوجه كقبلة أم .

* * *

أركض ...

تركض الشوارع بأعمدة النور المنحنية المطفأة ..

وتركض الفراشات ... وأوراق الأرصفة ..

أهتف ...

يهتف ضوء الصباح .. مولودٌ يومىٌّ يسمع العالم صوته ويفرح ...

أنادى ..

تنادى أصوات الباعة النشطين الطيبين ..

أسعل ..

ينهق حمارٌ دؤوب ..

أتلفت ..

تتلفت أعناق الشجر المحملة بخيرها .

أصرخ ...

تصرخ الحياة كلها من حولى .. مبكرة .. طازجة ... شهية الرائحة كرغوة حليب درّها الضرعُ للتّو ! !

أمضى غارقة نحو قلب المدينة .. هى ذى المساكن المتراصة تلفظ أجساد أصحابها إلى الشوارع المبللة بندى الصباح .. وبول المواشى .. يتوزعون فى الأزقة الضيقة .. أجساد طموحة تعارك الحياة ... مستوية زاخرة بالحرارة .. عرقها مالح رغم طراوة الصباح .. عروقها ناتئة تستغيث بدمائها .

هى ذى الرغبة فى الحياة .. وفى معاركتها .. مفروشة فى لحومهم السمراء التى صقلتها الشمس .. تشققات .. محفورة فى الأكف الخشنة .. وفى الجباة التى تعلو فوق عيون تموج فيها شهوة البقاء ... والعطاء .. رغم التعب .. يتحركون .. لا يستريحون .. لقمة النهار التى تأتى بالآه .. وبالرجاء .

أواصل السير ....

أندس فى الأزقة اندساس الخيط فى ثقب الإبرة . أجساد تتوزع تحت جدران الأبنية العالية .. وعند أعتاب الجوامع المتناثرة مآذنها نحو السحاب .. وفوق الأرصفة . تحمل عاهاتها ، وبؤسها ، وزفرات الجوع ، والعرى . وتحلم بلقمة .. وملابس لعيد يسمعون أنه يأتى .

أتابع أقدامًا عارية لأطفال تشتهى أعينهم الغفوة فى هذا الفجر المتنفس . يتحلقون حول بائع فطورهم اليومى متسابقين إلى الرزق .. مهرولين بعد ذلك إلى الجحور الضيقة التى يتزاوج فيها أهاليهم كالأرانب .. يجوعون .. ينامون .. يستفيقون على أمل أن يندس فى الجحر المنسى رغيف خبز تتقاسمه العائلة بالعدل وتصوم بعده شهرًا .

تدخل إلى جسدى روائح المدينة الحنون .. رغم بؤسها تنغرز فى مساماتى .. تدخلها .. تذوب فى دمائى .. فأشبع .. أحس للشبع طعمًا لذيذًا .. أحس امتلاءً ينسينى رأسى الذى تركته هناك على الطاولة الزاخرة بأشهى الأطباق . وهو يتابع الضوء المتلاعب برشاقة مرعبة .. وينصت إلى الموسيقى المجنونة التى يخرس دونها أى صوت . هل ترى رأسى هناك يتذكر جسدى المنفصل عنه ؟؟ هل يتذكر توأمه الذى فَرّ بجلده من ذلك الكهف الصاخب ومن حياة ميتة رغم توهجها .. وصخبها ؟؟ أم تراه فقط ينتظر طبق « الستيك » الذى طلبت من الجرسون أن ينضجه جيدًا ؟

هل تراه الآن فى الصحن تفوح رائحة شوائه ونضجه ؟؟ هل هو شهى الرائحة كأجساد هؤلاء الكادحين ؟ تستوى الروائح داخل صدرى .. رائحة مدينة واحدة شقها السيف نصفين كما شق رأسى .. فصارت مدينتين .. مدينة تفقد الوعى بصخبها المجنون .. ومدينة تعيد الوعى للصخب اليومى من أجل اللقمة .. من أجل أن تبقى الرؤوس صلبة فوق الأعناق .

* * *

أتحسس عنقى ..

أتذكر رأسى الذى هرب .. أين هو الآن ؟؟ هل ترى عيناه ما أرى فتمتلئان دهشة .. وبهجة وتسبيحًا ؟؟

هل تتحرك فى عروقه نشوة الاكتشاف فيمارس عشقه للأرض الرطبة .. والأجساد العامرة بنشاطها تعانق غصون الحياة الطرية .. تتعلق بأذيال أمل لا تطفأ شموعه رغم هبات اليأس الحارقة ؟؟

أشتهى عناق رأسى .. تيار الشوق يهزنى فأسرع أضرب الهواء الذى يبدأ يتسرب إليه دفء النهار. أبْصُمُ خطواتى على الأرصفة .. أزجها فى الدكاكين وداخل الأبواب المشرعة .. أبحث .. أصرخ :

ـ يا رأسى ... أين أنت ؟؟

أكرر الصراخ .. ثم الهمس .. ثم الصراخ . ثم ..

يأتى صوته دافئا :

ـ أنا هنا ..

وأراه ... بين أحضان الأرض الرطبة تمرح السعادة على وجهه .. وتنحدر ابتسامات .. تتوهج شبابيك عينيه المفتوحتين على عرس الحياة الدائم .

أدنو منه .... يبتسم ...

أمد كفين مشتاقين .. فيستسلم لطراوتهما .. أمسح عليه بحنان .. فيتذكر أن له قاعدة تنتظر أن يجلس فوقها .. ويستقر .. أوسّع فتحة عنقى .. أحمله .. أدسّهُ فى الفتحة .. يفرح .. أفرح .. يضحك .. أضحك أحسه يلتئم بالجسد بحرارة كحرارة النظرة الأولى بين الأم .. والوليد المنتظر .

يسأل بصوت عذب :

ـ إلى أين ؟؟

ـ سنعود .

ـ يحتج صوته :

ـ إلى ذلك الكهف العاهر!

أطبطب عليه مطمئنة :

ـ بل إلى توأمك المفصول المنتظر هناك .

* * *

أعدو .. ورائحة المدينة المرهقة معى .. أحملها أريدها أن تبقى .. أخشى أن تنسلخ عن لحمى وجلدى متصورة أننى سأرفضها .. أو سأخجل منها حين أصل إلى ذلك المكان المعبق بأرقى أنواع العطور . أحضن أطرافى .. أخبئ الرائحة فى جلدى .. أتنشقها لتبقى داخل صدرى .. تفوح فيه .. وتشعر بالأمان .

* * *

لم يشعر بدخولى أحد .. كأننى ماغادرت ورأسى إلى مكان ما .... كأننى لا أحمل رائحة تشق بعرقها أنوف الجدران .. وخلايا اللحم المشوى .. كل شىء كما هو ... الطاولات المفروشة بالمأكولات التى لو كانت هناك فى تلك الأزقة لما بقيت لحظة واحدة . أدنو من الطاولة التى يجلس عليها رأسى ... كان غاضبًا . ما أن جلست حتى عاتب توأمه :

ـ لقد تأخرت ..

ـ كانت رحلة لذيذة .

ـ أنا جعت ..

ـ وأنا لست جائعًا ؟؟

.. هل أكلت فى الخارج ؟؟

ـ لا يوجد لحم هناك ...

ـ لكن اللحم هنا كثير ..

ـ سلخُ الأجساد التى تكدح تحت الشمس .

الجرسون يقترب بأدبه المصطنع . يضع طبق « الستيك » المشوى أمامى .. أسمَر كأجساد الرجال الحالمين بطعمه .. أمسك بالشوكة .. والسكين ... أضعها فوق قطعة اللحم .. أَهُمُّ بذبحها .. أدوس عليها .. أصيبُ أحَدَ عروقها .. يَنْفُرُ الدمُ .. أَحْمَر .. أتقززُ .. ترتعش يداى ... أرتعش كلى ... تثور معدتى .. أحس بأننى أمام لحم آدمى ....

* * *

المحتويات

رقم الايداع ٥٢٩٣ / ٨٥ الترقيم الدولى ٦ ـ ٠٤٥ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا شروق - تلكس 93091 SHROK UN
بيروت : ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE